"من قتل ليلى الحايك؟"

أو

"الشيء الاخر"

غسان كنفاني

انا لم اقتل ليلى الحايك..

اقولها لك انت يا ديما الحبيبة الرائعة..

و اقولها لكم جميعا ايضا.

اقولها لكم للمرة الاخيرة،دون ان اتوقع مردودا لا بالجزاء و لا بالعقاب. و لذلك لا بد ان تكون صادقة : فليس ثمة اصدق من حكم يطلقه على نفسه رجل ميت!
انا لم اقتل ليلى الحايك..
و لست اريد لاحد ان يمنحني الشفقة اذا اقنعته هذه الكلمة بان رجلا بريئا قد شنق. و لست اقولها لاي غرض .و ليس لهذه الحقيقة ان تفعل ايما شيء مع العدالة. فقد كانت القضية كلها ، قبل ات يكتشفها القضاء و بعد ان اصدر حكمه فيها ، فوق قدراتنا جميعا و وراء منطقنا ، و لذلك ارتضيت كل دقائقها صامتا ، كما تعلمون.
ليس تماما.
لقد تكلمت كثيرا في الساعات الاولى. دافعت عن نفسي بالحقائق التي يستطيع الرجل المفرد ان يراها، ثم فجاة - كما ينشد حبل ما حول عنق انسان فيرفع في لحظة واحدة جدارا حاسما بين الموت و الحياة - قررت ان اصمت.
لقد استغرب الكثيرون مني انا بالذات ان التزم الصمت في حين اخذت الدلائل كلها تدفعني اكثر فاكثر نحو حبل المشنقة.. انا الذي ما تعودت ان اصمت حين كان الموت يهدد الرجال الذين سلموني بقدرية لا مثيل لها ، حبال مصائرهم.
و انت يا ديما الحبيبة الرائعة ، كنت بلا شك اكثر الناس استغرابا..
فيما مضى كنت ارمقك و انت جالسة في مقاعد الحضورتنظرين الي مغتسلة باعجاب كان يثيرني و انا منصرف الى الدفاع عن المتهمين.. و حين كنت انتزع من منصة القضاء حكما بابطال اتلموت عن موكلي كنت اعتبر هذا النصر هدية لعينيك وحدك ، و كنت دائما - اصدقك عواطفي الان - انغمس و انا سابح في انتصاري بتصورك تاك الليلة بين ذراعي .. كنت تمنحينني عاطفة عميقة غريبة كان انقاذي لموكلي هو وحده الذي اتاح لك ان تنامي في الفراش معي. كان تخلبص انسان من الموت كان يوقد في لحمك انت وهج الحياة.
ترى ..كيف تفكرين الان؟ هل تعتقدين لحظة انني انا الذي قتلت صديقتك ليلى الحايك؟ هذا السؤال هو الذي كان ، وحده ، يؤرقني في اليالي التي قضيتها و حيدا في الزنزانة.
لا يا ديما الرائعة.. انا لم اقتل ليلى الحايك!

تقولين : اذن لماذا التزمت الصمت طوال الوقت ؟ ما الذي ربط لسانك ؟ لماذا ام تدافع عن حياتك انت الذي خلصت حياة الكثيرين من حبا المشنقة ؟

هذه هي قصتي كلها..

انها الجواب على هذه الاسئلة التي حيرت الجميع و حيرتك انت خصوصا و حيرتني انا - في البدء - اكثر من اي انسان اخر.

لقد كان صمتي اعلانا راعدا عن " شيء اخر " في حياتنا عشنا دائما في معزل عنه فاذا به ، فجاة ،اقوى ما في حياتنا...

من الذي قتل ليلى الحايك اذن ؟

اجيبك ببساطة : شيء اخر هو الذي قتل ليلى الحايك ، شيء لم يعرفه القانون و لا يريد ان يعرفه.. شيء موجود فينا ، فيك انت ، في انا ، في زوجها ، في كل شيء احاط بنا جميعا منذ مولدنا..

نعم انا جزء من الجريمة، و انت كذلك ،و لكن الذي نفذ الجريمة هو وحش غامض ما زال و سيظل طليقا.

لقد صمت حين اكتشفت هذه الحقيقة فجاة.. وجدت نفسي في الفخ..و عانيت ما عانى كل انسان اكتشف فجاة شيئا لم يكن رفاقه قد اعتادوا عليه بعد. و اذلك قررت ان اصمت. و ان اترك كل شيء ياخذ مجراه الذي سار فيه دون ارادتنا و سيظل يسير فيه بصرف النظر عن ارادتنا..

ان هذه الامور شديدة التعقيد جين نقولها ،و لكن حين تمارسها الاحداث معنا تصبح غير ذلك.

و لهذا بالضبط قررت ان اكتب لك انت.. لانني احبك ، و لانني لمحت في عينيك و انا جالس في القفص استمع الى حكم القضاء ومضة شك ارعبتني..

و سوف لن ازيد شيئا على نا حدث. و سابرر المور لك حين اشعر انها في حاجة الى تبرير و لكنني ساقول الحق ، كل الحق ، و لا شيء غير الحق.

و انت _ بعد ذلك - حرة في ان تعتقدي ما تشائين. فلنا في الواقع اضع على كتفيك الحمل الثقيل الذي واجهته بالصمت.. فاذا اخترت ان تواصلي الصمت و تطوي المسالة برمتها فهذا يعني انني انا ايضا كنت على صواب.

و اذا اخترت ان تفتحي الملف امام القضاء مرة اخرى فسترين بعينيك انك ستدخلين الى عالم غريب لا مخرج منه تفضلين فيه مثلي لو انك اخترت - مثلي - ان تصمتي.

اجلسي الان بهدوء على كرسيك المفضل قرب باب الشرفة ، و اقراي القصة كلها بعناية.. و سابدا من النقطة التي لم يتيسر لي قط ان ارويها لك.

في منتصف نيسان الماضي بدات القصة بالنسبة لك على الاقل..

استدعاني المحقق الى مكتبه في التاسعة و النصف صباحا ، كان قد سال سكرتيرتي هناء عني في التاسعة و حين قالت له انني اصل في التاسعة و الربع الى مكتبي قال لها انه سيخابرني فيما بعد. و انه لا يريد ازعاجي في البيت.

صوته في الهاتف لطيفا و دافئا ، عكس المطر الذي كان يجلد النافذة. و قد دخل الى الموضوع مباشرة لكن دونما عنف. و ابلغني :

- سنحتاجك نصف ساعة هنا يا استاذ صالح،في مسالة مستعجلة لو سمحت.

سجلت على دفتر الملاحظات ملاحظتين لهناء، و الغيت موعدا ، لم ينتابني اي شعور غير عادي فالمسالة بالنسبة لرجل يعمل في المحاماة مثلي مسالة عادية تماما. تناولت مظلتي و طلبت من السائق ان يوصلني الى مكتب المحقق الذي كان يعرفه جيدا.

اجتزت الرواق دونما اعتراض - كالعادة – و تبادلت تحية الصباح مع عدد من الموظفين الذين كانوا يعرفونني جيدا...و دخلت الى غرفة المحقق دون استئذان – كالعادة - و هناك فقط جاءني للحظة واحدة شعور غير مريح حين تجاهل يدي الممدودة و لم يقف..

تكلم بهدوء ، و لكن بثقة و برود ، فيما كان يقلب بين اصابعه الغليظة علبة ثقاب ،و قد بدأ ، كما على الهاتف ، مباشرة و دونما عنف :

- سنسالك سؤالين عن ليلى الحايك

و خفق قلبي خفقة بعيدة ليس بوسع احد اكتشافها او ملاحظتها، فطوال الشهور الثلاثة الماضية كنت قد تعلمت ان اجعل بدني باجمعه ، على السطح ، يمر مرورا عاديا فوق اسمها حين كان يلفظ امامي :في المكتب او في البيت. من سكرتيرتي او من زوجتي او حتى من زوجها و اصدقائه.

و بهدوء سالت :

-ماذا عن السيدة الحايك؟

- -متى شاهدتها اخر مرة؟

و لاحظت وراء جفنيه بريق العين التي تعرف انها في تلك اللحظة تلعب لعبة الذكاء ، فتراجعت في مقعدي و فكرت . كنت افكر حقا لاتذكر اخر مرة شاهدتها فيها على مراى من شاهد ، و قلت :

- منذ يومين كما اعتقد. انني لا اذكر تماما

و بجفاء وضع الامر كله على الطاولة بيني و بينه:

- يجب ان تذكر تماما الان.

- انني لا اذكر تماما ، فهي صديقة زوجتي و زوجها صديقي و ثمة قضية في المحاكم نتعامل معها سوية. و اراها عادة في امكنة عديدة دون مناسبة او في مناسبة. و لكن ذلك لا يعني شيئا ، و لست مطالبا ان ادونه في مذكرتي.

و اقتربت من الطاولة و سالت :

-و لكن هل استطيع لو سمحت ان اعرف لماذا كل هذه الاسئلة؟

و قام عن طاولته و دار حولها واضعا كفيه في جيبي صدارته الرمادية ، و اقترب مني اكثر مما يقترب المحقق ، عادة ، من محامي و لكن اقل مما يقترب من المتهم ، و قذف الجملة في وجهي كما تتقذف سدادة زجاجة :

-لانها قتلت.

لقد جاءت الكلمة الى اذني اولا و بالطبع ، و لكن حين ارتد صداها من الحائط الداكن كنت قد ابتلعتها حتى العماق ، و اصبحت بالنسبة لي قضية ، لا اكثر و لا اقل ، حالة ، جريمة مروعة ،و لكن ابدا لم تعد مسالة شخصية . في مرات عديدة كنت اتصور ليلى ميتة ليسهل علي انر تقييمها ، و ذات مرة جعلت نفسي اتصورها ، و هي تمتص اخر قطرات اللذة على سريرها ،مجرد جثة ، كنت قد اقنعت نفسي بان الوسيلة الوحيدة التي تستطيع ان تنهي علاقتنا هي ان يموت احدنا. و ليس ثمة فكاك اخر. و لانه كان من المستحيل ان اتصور نفسي ميتا فقد اعتدت على تصورها كذلك. كنت اريدها ان تموت ليس لانني اكرهها و لكن لانني احب زوجتي و لانني لم اكن اريد ان اترك ايا منهما. كنت اتصورها جثة لان ذلك وحده فقط ، في تصوري ،كان جديرا بوضع نهاية صحيحة لكل شيء ، وحده كان المر الذي يجعلني جديرا بالحتفاظ بزوجتي و بحب ليلى في وقت واحد.

لم افجا اذن الا بمقدار ما تفجا العرافة بدخول الزبون ، و رغم ذلك فقد كان صوتي مبحوحا تقريبا حين تساءلت ، مشددا على كلماتي:

-ليلى الحايك قتلت ؟ كيف ؟

-كان يجب ان تسال متى ؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك ؟

و اخرجت علبتي و ناولتها له ، فتاملها لحظة ، و ابتسم ثم اعادها الي دون ان ياخذ لفافة:

-ان لك طريقة خاصة في فتح العلبة.

-الكل يقولون ذلك.

و دخل الى الموضوع بثقة الذي اكتشف كل شيء:

-لقد اوقعت علبة مفتوحة بالطريقة ذاتها على باب بيتها.

-متى ؟

-في نفس الليلة التي قتلت فيها ، امس.

و بدت كلمة قتلت ، حين لفظت الان ،جديدة ،تماما و مرعبة كاني انا الذي قتلتها. اما هو فقد ادار ظهره ، و عندها فقط ارتجفت و عضضت شفتي و منعت نفسي من البكاء ، و حين صار وراء طاولته فتح درجه بهدوء ، و تناول علبة سجائر منزوعا غطاؤها من جانب واحد حتى منتصف طول اللفافات و رماها على الطاولة امامي كانه يدعوني الى التدخين ، كان فيها لفافتان.

- اين كنت في تلك الليلة ؟

-اية ليلة ؟

_امس اذا شئت ان اذكرك.

_كنت اشرب قهوة على الشاطئ.

-هل تفكر ان تحدا رآك؟

_كلا.

و اشار الى العلبة و سأل:

_هل هذه العلبة لك ؟

_نعم.

_كنت احسب انك ستقول لا . هذا هو الخطا الثاني الذي ترتكبه خلال اقل من 12 ساعة...

و جلس ، و بدا لطيفا من جديد ثم اخذ يفكر باعتناء ، و قال كانه نسي شيئا هاما :

... _يا استاذ صالح.

و تحير . كان يتصور نفسه امام قضية خطيرة معقدة اشد التعقيد ، و ها هو يصاب بخيبة امل طاحنة حين لم ياخذ الامر كله من وقته اكثر من خمس دقائق . كان كمعظم المحققين قليل الثقة بنفسه اذا ما واجه خصما لينا. يفقد قشرته الصلبة حين يرى نفسه في غيرما حاجة الى نزال و ينقلب الى شيئ هلامي غير محدود ولا حاسم :

_انت محام قديم، رايتك هنا تدافع بذكاء عن اكثر من قاتل و تكاد تنجح تقريبا في كل مرة بتخليص رقبته من الحبل ، و لكن حين يجيء دورك تسقط علبة سجائرك على باب بيتها ، ثم تعترف بانها لك.

و سالت:

_كيف قتلت ؟

و قفز عن كرسيه كانما لسع . و على الرغم من انه بدا غاضبا حقا الا انه كان بميسوري ان اكتشف في اعماقه فرحة غامضة حين فوجئ ان المسالة لم تنته بالبساطة التي يتصورها ، و ان امامه لعبة طويلة ، و ربما معقدة ، و فحصني بعينيه الصغيرتين محاولا الدخول الى راسي . و لا شك انه اكتشف ان بوسعي ان اكون ، بسبب خبرتي الطويلة ، مجرما صعبا , اعطي اعترافا لابني منه متراسا ، و ارشو كلمة كي لا اخسر عشرا.

كان يعرف انه امامي انا ، لا يستطيع الا ان يكون عاريا تماما ، و انني اعرف ، من مقابلات لا حصر لها ، ابجدية وسائله جميعا، و رغم ذلك فقد كان من الصعب عليه ان لا يمارسها:

_تسالني كيف قتلت ؟ انا الذي اريد ان اسالك.

و عندها وقفت ، اطفات لفافتي و اقتربت من الطاولة التي كان ما يزال منحنيا فوقها و قات بهدوء:

_اذا كنت تريد ان تقول انني شاركت في قتلها ، فوفر على نفسك هذا الطريق المسدود ، ساساعدك قليلا في اكتشاف الامر ، و لكن قبل ان نبدا ضع هذا في راسك ، من الصدغ الى الصدغ.

و اخذت اقرع الطاولة بسبابتي مع كل كلمة:

_انا لم اقتل ليلى الحايك.

و استدرت ، و خطوت و لكن صوته اوقفني:

_انت موقوف يا لستاذ صالح.

ثم اكمل كانه تذكر شيئا:

... -لو سمحت.

امضيت بقية ذلك النهار في غرفة مغلقة تقع على مدخل الممر الذي يقود الى غرفة المحقق، لقد منعوا عني بالطبع ، كافة المقابلات ، و لم ار انسانا الا الذي قدم لي بتهذيب لا مثيل له وقعتي الغداء و العشاء المتواضعتين ، و قد اكلت بشهية طيبة ،و عانيت قليلا من انتهاء الدخان ، و كان المقعد الخشبي غير مريح ،ثم ان النافذة الصغيرة العالية جعلتني افقد الاحساس بالزمن ، و ليس صحيحا ان الساعة في معصمي تستطيع تمويني بتقدير سليم للوقت . ان قليلا من الذين لم يسجنوا ، لسبب او لاخر ، يعرفون ان تقدير الانسان للوقت و احساسه بالزمن لا يتوقفان على الساعة و لكن على الضوء ايضا ،و على الحركة ، و على المواعيد ، و على نظامه الخاص في تناول وقعاته و الذهاب الى سريره ، و حين ينفرد بالساعة فقط يشعر انه بشكل ما مخدوع . لقد وقفت عند نقطة الزمن هذه لانها مهمة جدا في قضيتي . فقد كان توقيت الاحداث جميعا الشاهد الاول ضدي ، و حين كنت استمع الى مرافعة الاتهام و استجوابات الشهود كان الزمن ،الذي لم يكن يعني بالنسبة لي الا علاقات مع الناس و مع نفسي ،قد اضحى بطلا منفصلا له شخصيته الخاصة ينازلني هنا و هناك كانه خصم صعب .

هل الزمن صدفة ؟ هذا سؤال لا يعني القضاء ، و ليس ثمة قانون في تراث الانسانية يتعامل مع هذه النقطة بقدر ما تسعفني ذاكرتي من شواهد ، و لكن ما اعرفه الان تماما هو ان الزمن لم يلعب الدور الرئيسي في القضية قبل توقيفي فقط . و لكن بعده ايضا . و في الشهور التي قضيتها سجينا نشات علاقة من نوع جديد بيني و بين الزمن ، لقد كف عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس و مع نفسي و اضحى خصما محضا .>>

حين تضعون رجلا في غرفة مغلقة خمسة شهور ، بلا امل تقريبا ، فان الزمن ، اذن ، لا يستطيع ان يكون بالنسبة له ما هو بالنسبة لجميع الناس . ان تنظر الى ساعتك فترى انها الواحدة امر لا يعني شيئا . انه تجريد محض . الواحدة بالنسبة لرجل خارج السجن هي ساعة طويلة ، او قصيرة ، هي ساعة قبل الغداء او ساعتين بعد انتهاء العمل . و لكن ما هي بالنسبة لي انا ؟ لقد تعودت هذا الامر تعودا فظا ، و حين كف الزمن عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس و مع نفسي صار الناس ــ و صارت نفسي ايضا اقل اهمية ، استطيع ان اقول انهما صارا طرفا في مسالة حسابية لا تعني احدا لا بمقدار ما تعني عملية حسابية ، بالارقام المحضة غير المترجمة الى مال او وزن او مسافة .>>

لو تركتم وقتا كافيا لي لكتبت كثيرا عن هذه المسالة ، و قد وقفت عندها هنا بصورة عابرة و اخشى ان تكون غامضة ايضا لابرر لكم صمتي ،لابرر لكن كل الامور التي لم تستطيعوا تفسيرها في سلوكي الى درجة ارتضيتم ان يكون تنفيذ الحكم في اسرع من المعتاد.

قبل انصرافه في المساء زارني المحقق ، و كان لطيفا جدا حين ابلغني بانه لا يستطيع ان يجزم بادانتي او ببراءتي او بموقعي بين الادانة و البراءة ، و لكنه يخشى ان اكون في موقف صعب .

- "انت الان في اخطر قضية شهدتها طوال خبرتك في المحاماة ، تحتاج الى قدر هائل من اهتمامك و اعتنائك ، ليس لانها معقدة فقط ، و لكن لانها تستهدف راسك ، لا راس موكل غريب .. انني انصحك بان تكون دقيقا جدا في اختيار اجوبتك امام هيئة المحققين غدا .">>

هيئة محققين بهذه السرعة؟ هذا يعني ان الصحافة تضج كثيرا ، و ان لدى الاتهام ثروة من الادلة و ان الجريمة بشهة حقا لتكون قد استقطبت اهتمام الناس .>>

ليلى الحايك !>>

و فاحت رائحتها القوية فيما كانت العتمة تنزل من النافذة العالية . لقد كانت صديقة زوجتي من ايام الدراسة و لكنهما انقطعتا عن بعضهما بعد التخرج. و في السنوات السبع التي انقضت على زواجي لا اذكر ان ديما زوجتي قد لفظت اسمها امامي او تحدثت عنها ، و قد قابلتها لاول مرة في عيد ميلاد زوجتي .>>

كنا قد قررنا انا و ديما ان نمضي هذه المناسبة بهدوء : نتعشى في مطعم ثم نذهب فنرقص قليلا في ناد ليلي . و هناك التقت ديما بليلى و كنت اضم زوجتي في حلبة الرقص حين اخذت تتبادل الكلام من فوق كتفي مع امراة اخرى ورائي ، ثم قدمتها الي و قدمت هي زوجها ، و حين عدنا الى طاولتنا اقترح زوجها ان ننضم الى طاولة واحدة و على الرغم من اننا كنا قد اتفقنا على ان نجعل ذلك الاحتفال الصغير منفردا ، قاصرا علي و على ديما ، الا ان فرحتها بلقاء صديقتها القديمة بعد غياب طويل ، و ربما توقها الى معرفة من منا بكسب اكثر انا ام زوج ليلى جعلها تقبل العرض بلا تردد.>>

كان زوج ليلى ، سعيد الحايك ، رجلا وسيما ، يحمل وجها شابا لا تستطيع عبره استكشاف عمره، كان قصيرا بعض الشيء و لكنه نحيل الى درجة تخفي هذا القصر . و منذ بدا يتحدث كان من الميسور ان يلاحظ المرء انه شديد الذكاء ، واسع الاضطلاع ، يجيد الاستماع الى اي موضوع و المشاركة فيه ، و كان واضحا ايضا انه يحب ليلى بصورة لا تصدق. و يغار عليها بصورة ذكية : فهو يلاحق دون ان يتوقف عن الاستماع او الحديث ، نظرها اينما تنقل ، و يدرس اهتماماتها بالرجال و الازياء و اللوحات في محاولة واضحة لاكتشافها حتى الاعماق.>>

و كنت اعرف جيدا هذا النوع من الرجال الذي يعاني من شعور غامض بانه لم يمتلك حبيبته تماما ، بعد. و في سبيل ان يحقق هذا الهدف المعذب بخوض مغامرة صعبة لاكتشافها كي يوظف هذه الاكتشافات اليومية في عملية تطويق مرهقة ،و تلبية كاملة لكل اشواق المراة و مطامحها و نزواتها .>>

و كنت اعرف ايضا ان هذه معركة خاسرة حتما . ان العالم الذي يجتذب المراة و يرويها عالم شاسع و كلما اكتشف الرجل مساحة منه اطل منها على مساحة اكبر لم يكتشفها بعد، و يزيد ذلك في شعوره بانه لم يمتلك المراة بعد تماما. اما المراة فينتابها شعور مرير بان اكتشافها بهذه الصورة يفقدها كثيرا من اسرار الانثى ، و يضيع عليها فرصة ممارسة دورها كمعيد ساحر غامض. و هي امام تقدم الرجل الذكي في مجاهلها تتراجع و تتكمش .>>

وحين قمت مرة اخرى ارقص مع زوجتي قلت لها :" ان ليلى الحايك امراة سهلة ">>

كانت ليلى نصف جميلة ،لكنها تتوقد باهتياج مثير و ليس بوسع الرجل العاقل ان يمنع نفسه من التفكير بها كعشيقة . >>

و قالت لي زوجتي :" لماذا تعتقد ان ليلى الحايك امراه سهلة ؟">>

و تلك اللحظة بالذات ،فقط ، قررت ان ابذل المحاولة ،ذلك انه ليس بوسعي اعطاء جواب اخر ، ليس لزوجتي فحسب ، و لكن لنفسي ايضا .>>

و حين التزمت الصمت سالت زوجتي مرة اخرى :" هل تعتقد انها لا تحب سعيد ؟">>

_ كلا ، انها تحبه جدا و تريد ان يظل يحبها .. لست ادري ، و لكن اعتقد انها ، لذلك امراة سهلة .>>

و فغرت ديما فمها ، و ابعدتني عنها و تاملتني ساخرة ثم قررت : " لقد شربت كثيرا ">>

و لم اكن قد شربت كثيرا حينذاك . و لكنني كنت امر في تلك اللحظات العابرة التي يشعر فيها الانسان انه يستطيع ، لو بذل قليلا من الجهد ، ان يمتلك العالم ، ان لحظات تشبه ان يكون المرء قد شرب كثيرا ،و صار بوسعه ان يصدق بان النظريات التي يحملها حول الاشياء و الناس و القيم كاملة في صدقها . و ان ما ينقصها فقط هو ان توضع في مكان تفرخ فيه تجربة ما.

وحين جلسنا قال سعيد باسما : >>

- انني اسمع عنك انك محام لامع ، و انا في الحقيقة فخور بمعرفتك .>>

و نظرت ليلى الي ، ربما لاول مرة ذلك المساء ، و درستني في نظرة واحدة لا تجيدها غير المراة الحقيقية ، و كان من العسير علي ان اعرف فيما اذا كنت اجتزت ذلك الامتحان .و من ناحية اخرى كنت مهتما في ان احول بين زوجها و بين اكتشاف ايما شيء ، كنت اريد ، بشكل ما لست اعرفه ، ان تدرسني من وراء ظهره ، كي لا تتقاطع نظراتها بعينيه الذكيتين ، الشديدتي الملاحظة.

و مضى هو كانه لم يقل شيئا بعد:

- اود لو تعطيني غدا نصف ساعة استشيرك فيها حول مسالة تخص صديقا .

_ اي نصف ساعة تشاؤها غدا .

و حتى تلك اللحظة لم اكن قد عرفت بعد ايا من صنارتينا قد شبكت الاخرى . كنت اريد ان اعرفه . ذلك انه اذا كان طفل الارملة افضل الطرق اليها فان الزوج هو الطريق الوحيد للزوجة السهلة. اما هو فقد كان يهدف بلا شك الى ما هو اكثر من استشاره تخص صديقا ، فليس من المعقول ان ينتظر رجل اعمال ناجح مثل سعيد الحايك مصادفة في ناد ليلي ليهام بمسالة صديق مزعوم . و سواء كانت صنارتي هي التي اصطادت صنارته او العكس ، فان على كل منا منذ الان ان يكون شديد الحذر . فقد كنا، ببساطة ، خصمين صعبين .

و تركته يرقص مع ديما و راقصت ليلى بوقار ، و حرصت ان لا اطرح عليها ايما سؤال ، اما هي فقد كانت ابسط مما توقعت، و قد سالتني اذا ما كنت اعلم حقا ان ديما رائعة ، و سالتني عن عملي و مكتبي و سيارتي و عائلتي و كنت اشعر انني يجب ان البي شوقها الى اكتشاف الاخرين ، لقد كانت اجوبتي تزرع في راسها اسئلة

جديدة ، انها ترتاح الى ان تلعب معي لعبة زوجها معها ، فاذا استمر ذلك بعض الوقت فالى اين سينتهي؟ كنت شبه متاكد من النتيجة . و لكنني تصرفت كرجل يستعصي على الامتلاك .

و ودعناهما على باب النادي و قلت لزوجتي : " انها سيدة بليدة "

و لكنني في اعماقي كنت متيقنا انني غرست نفسي في اعماقها .

لقد كانت هذه اللحظة بالذات هي بداية الجريمة التي اودت بحياة ليلى الحايك و التي لم ارتكبها انا ، و رغم ذلك حكمت بالموت بسببها .

و كانت مسالة واحدة في تلك اللحظة ، تقف نقطة سوداء غامضة في مشروع علاقتي بليلى....

ماذا تراه يريد مني؟

و لكن هذا كله سيبدوا لكم الان ، ايها السادة ، كانه خارج الموضوع ، و في الحقيقة انه ليس كذلك تماما ، ان اية حادثة - حتى لو كانت جريمة قتل بشعة - انما هي حلقة واحدة في القصة و ربما كان اكبر خطا يرتكبه القانون هو انه يحاول تشريحها منفصلة قدر الامكان عن اي شيء اخر ، و عندها لا يستطيع ان يكتشف فيها اكثر مما يستطيع المخبري ان يكتشف من قطعة الجلد انسانا ، صحيح ان القانون يظل مهتما في البحث عن الاسباب و القرائن ، و لكن اهتمامه هذا يكسب قيمته فقط حين تكون هذه الاسباب و القرائن قريبة بصوره مباشرة للجريمة ، ان الجريمة بالنسبة للقضاء هي قصة مسطحة ، فيما هي في الحقيقة قصة ذات ثلاثة ابعاد ، مثل كل شيء في هذه الحياة . انتم لا تستطيعوا ان تحكموا على هملت ، الان ، بالموت ،ذلك انه استطاع في اربعمئة سنة ان يقنعكم بان الجريمة التي ارتكبها انما هي حلقة واحدة من قصة لا يمكن تمزيقها ، و لو احضروا امامكم رجلا قتل اباه ليتزوج امه لشنقتموه دون تردد ، و لكنكم ستفكرون الف مرة قبل ان تمسوا شعره من راس اوديب.

زارني سعيد الحايك في مكتبي ظهراليوم التالي ، بعد ان هاتف طالبا مني انتظاره،

و حين دخل طلب فورا ان نمضي فنتناول الغداء في مكان مريح، اعتذر

لزوجته و فعلت مثله ثم ذهبنا بسيارتي الى مطعم اسماك يقع على بعد ثلاثة

اميال من المدينة.

و في الطريق ، فيما كنت اقود السياره بنفسي لان السائق كان غائبا لسبب لا

اذكرهحاول سعيد بطريقه ذكيه ان يوحي لي بانه يحب زوجته حبا عميقا ،

و كان هذا كله تمهيد لما سياتي ، و يبدوا انه فكر مليا في طريقة يدخل بها

الى الموضوع ثم اكتشفان ابسطها هو الافضل .

لم نكن قد بدانا الاكل بعد، حين اعتدل في جلسته و منح صوته تلك الرنة التي

يعطيها الرجل حين يريد ان يبدو مخلصا و حاسما و موجزا في وقت واحد :

- نحن رجلان عاقلان يا استاذ صالح ، و ينبغي ان لا نسيء تقدير ذكاء كلينا ،

ان المصادفة وحدها هي التي ستجعلنا شركاء في القضية التي ساعرضها عليك .

و كي لا اجيب قدمت له لفافة فاخذها و دقها على الطاوله و ابتسم.

- طريقتك غريبة في فتح العلبة ، لماذا تفتحها هكذا ؟

- كي اظل على معرفة بعدد ما تبقى من سجائري . انني ادخن كثيرا و اخشى ان اجد مفسي دون لفافة على حين فجاة ، فينتابني شعور بانني اعدوا في الشوارع و امام الناس دون سروال .

- ثم صارت عادة؟

- اجل.

انه موضوع صعب كما يبدوا ، و لذلك فهو يحرص على خلق جو من الصداقة الحميمة قبل الشروع في الحديث ، و حاولت ان اسهل له مهمته بالصمت ، و الابتسام مستشعرا قلقا غامضا كانني على ابواب عرض لا يقيم :

- استاذ صالح .. انني مثلك احب زوجتي ، و لست ادري كيف تشغلك هذه المسالة ، و لكنني اريد ان اسالك ، لو كانت زوجتك تمتلك ثروة كبيره .. فماذا تفعل ؟

و لم اكن اتوقع مثل هذا السؤال ، لم اكن في الحقيقة قد فكرت به من قبل ، و اهم من ذلك لم اكن اعرف الجواب الذي يريد لبتكئ عليه الى نقطة ثانية .

- ان ليلى هي وحيدة لاب ارمل سيموت في اسبوع ، هذا موعد طبي و ليس غير ذلك على الاطلاق، و في اسبوعين فقط سترث ليلى ثروة .

و حين لاحظ دهشتي وضع الامر في نصابه :

- انني احب ليلى و لست اريد ان افقدها بايه وسيله .

و مضى شوطا اخر :

- لا اريدها ان ترث هذه الثروة. هل تفهمني؟

- افهمك ، خصوصا اذا اردت ان ترثها بنفسك

و سحب كرسيه الى الامام و اتكا على الطاوله :

- لا تسئ فهمي ارجوك، و لكن معك حق . فانا الذي اسات شرح الموضوع برمته ، لنضع الامر كما يلي:

انا احب ليلى ، لا اريدها ان ترث ذلك المال كي لا يفسد علي كل شيء ، و لا اريد انا ان ارث ذلك المال .

و تبدى لي تلك اللحظة اذكى بكثير مما تصورت ، و اكثر التصاقا بتلك الانانية النبيلة التي تستعصي على الفهم .

- " قبل ان يتتزوج والد ليلى امها كان مغتربا في الارجنتين ،و الحقيقة انه جاء من هماك براسماله الذي بنى فوقه ثروته ، و قد ماتت والدة ليلى في

وقت مبكر ، الا ان الوالد المفجوع لم يتزوج مره اخرى . و قد اوقف حياته على العناية بابنته التي كانت حقا وحيدته في هذا العالم ، و قد اوصى لها بالطبع بثروته كلها ، و اخشى الان ان يكون ذلك العجوز الطيب قد ارتكب خطا لم يتوقعه . فيدمر ابنته و سعادتها من حيث اراد مساعدتها ."

قلت له انني افهم قلقه ، فهبوط ثروه مفاجئة على امراه هو امر لا يستطيع اي انسان ان يضمن نتائجه ، و لكنني افهمته انني لست ارى ايه طريقه لمنع ذلك الارش عن الابنه ، و سنبدوا مضحكين لو اننا بذلنا المحاوله .

- انني اعرف ذلك كله و قد فكرت فيه مليا ، الا ان الاقدار و جدي حلا ما ، هو الذي من اجله طلبت مقابلتك.

و بدانا ناكل صامتين ، و لم استعجله لانني كنت اود التفكير بالامر ، انني لم اواجه قط مثل هذا الموقف ، واجهت عشرات من المواقف المضاده، و لكن ابدا لم يجئ انسان عندي كي اساعده في التخلص من ثروه،. ثم ماذا يحدث في علاقتي مع ليلى التي كنت ارتبها باعتناء ؟

ان شيئا واحدا هو الاكيد الان : صنارته هي التي اصطادت صنارتي!!

- لقد استطعت ان اعرف ان والد ليلى حين كان شابا طائسا في الارجنتين،رزق بابن غير شرعي .

و ابتسم ليجعلني افهم انه هو نفسع يشك في هذه الحقيقة ، ثم اكمل مرتاحا الى تلك الصفقة الصغيرة في امانة مثاليه :

- .. و مثل كل والد شرقي يريد العوده الى بلاده اعطى الابن اسما اخر ، و اعطى الام رشوة صغيره ، و قرر لكليهما مساعده دائمة و انزل الستار بهدوء على ذلك المشهد من المسرحية .

و وضع سكينته و شوكته على حافتي الصحن و اكمل :

منذ يومين وصلتني رساله مغفله ، منتزعة من قصاصات صحف ،دون توقيع ، تقول انه لا ينبغي علينا الاستئثار بالارث و اننا يجب ان نذكر الشاب الذي امضى حياته محروما .

و رمى الرسالة امامي و قال : من الواضح انه يريد رفع الدعوى ، و ان هذه الرساله هي تهديد اولي .. لديه بعض الرسائل من الوالد .. و لست ادري لماذا لم يوقع هذه الرسالة كانه يريد ان يوحي لي بان وراء الامر قوة ما .. على اي حال ، لماذا لا نستبق الاحداث ؟ لماذا لا تتولى القضيه انت و تدافع عن حقه ؟

و اصبت بقليل من الدوار ، و لكنني قلت له ان مثل هذه القضيه لن تكون الحل ،فالقضاء سيبت ان عاجلا او اجلا بالامر .

- ليس تماما ، انا واثق ان اوراق الصبي ليست كاملة ، انه امر يحدث دائما في مثل هذه القضايا ، كما تعلم ، و لدى ليلى اوراق مضادة .. ان ما نريده الان هو ان لا يتوصل القضاء الى قرار الا بعد فتره طويله ، انا واثق ان الشاب الارجنتيني هو مجرد افاك ، و انه سيقبل رشوه صغيره ليسقط دعواه ، و لكني لا اريد ان

اعرض هذه الرشوه الا في الوقت المناسب ، نريد الان ان ندفع القضية الى ممرات طويله من التعقيد ، و لسنا نرغب في ايه تسويه الا بعد فتره طويلة ، ربما طويله جدا.

- لنقل حين اموت انا، او حين يحدث شيء غير عادي ، و عند ذاك فقط سيخسر الصبي .

و صمت قليلا و فكر فيما قاله باعتناء ثم وصل الى المرحله الاخيره :

- ان ذلك كله يحتاج الى محام لامع ،لا تربطه بنا علاقه وثيقه ، و يتمتع بامانه و سمعه تجعلانه يحجم عن استغلال قضيه من هذا النوع .

و فورا وصلت الى قرار :

- ساطلب منك يا سيد سعيد بضعة وعود ، كرجل شريف ، قبل ان نبدا ، و فيما عدا ذلك بوسعك ان تعتمد علي اذا كان ما ذكرته هو كل شيء.

و وقف ضاحكا و مد يده :

- كنت متاكدا اننا سنتفق يا صالح .

و ترك الرساله الموجزه المغفله معي ، كانت من كلمات مقطوعه من الصحف ، تحكي بايجاز و دون اي ايحاء قصه الارث و قصة الشاب الارجنتيني الذي نبع في الوقت المناسب .

***

و في الاسبوع التالي استكملنا اوراق القضية : كان ثمه سلسله من الوصولات الرسمية ارسلت من والد ليلى الى سيدة ارجنتينية منذ زمن بعيد ، ليس فيها اي ذكر لابن شرعي او غير شرعي ، ثم رساله عزاء الى الصبي ليس فيها الا برهان الا على شيء واحد هو ان الوالد كان ذات يوم يحب الام بصوره غامضه فريده .و كتبت الى الصبي الذي كان كما قالت الرساله المغفله يعرف القصه و الذي كانت الفكره تروقه الى حد بعيد ، و قالت رسالة الصبي انه تدبر بالاضافة للاوراق امر شاهدين او ثلاثة .و كان هذا يكفي الان لبدء القضيه . و لكن الوالد المريض لم يمت ، و هكذا لم يكن امامنا الا الانتظار . و لم اكن اعرف حتى تلك اللحظة ، ماذا كنت انوي تماما، كان يخيل الي انني ساجد طريقة لقلب الموضوع ، موضوع ليلى ، ثم انني كنت اعتبر الامر برمته عباره عن تحد مهني لا مناص من خوضه.

لقد ضربت الصدفة ضربتها الثانيه حين قامت ليلى بزيارة لزوجتي : كان سعيد في واحده من رحلاته التي لا تنقطع ، و عدت انا مبكرا للبيت ، و امضينا سهره عادية، شبه بارده ، و حين انتصف الليل طلبت مني ديما ايصال ليلى بسيارتي .

و لم نتبادل الا حديثا موجزا في الطريق، ثم اوقفت سيارتي و اخذت المصعد معها الى الطابق العاشر ، و امام الباب طلبت مني ان اتناول المفتاح عن الحافه العلويه ، حيث تركته الخادمة . كان الباب ذا اطار خشبي بارز ، و قد مررت اصابعي في الطرف ، فوقه ، حتى عثرت على المقفتاح فناولته لها، و قبل ان تفتح الباب لاحظت :

- انت اطول من سعيد ، انه يبدوا مضحكا حين ينط لبتناول المفتاح .

و تصافحنا ببرود و عدت الى البيت.

لقد انزعج سعيد اشد الانزعاج حين روت له زوجته ما جدث ، و اتصل بي خصيصا ليذكرني بان علاقتي بهما يجب ان تكون باردة، و اقترح ان امتنع عن القيام باعمال مهذبة من هذا النوع كي اجنب زوجته اي شعور بالصداقة تجاهي ، و قد رايت انه ، نظريا على الاقل ، على صواب .

و حين مات والد ليلى تولى محامى العائله امر تصفية الارث ، و في الوقت المناسب قدمت الاعتراض ، فاندفعت القضية الى اروقه شديدة التعقيد ، و بدات اللعبة المسلية تزيد من علاقتي بسعيد ، الذي كان يروقه ان يمر على مكتبي بعد عبوط الليل ، ليتحدث و يشرب و يضع خطط المستقبل .

و لست اذكر الان بالضبط متى جاءت ليلى اول مره الى المكتب مع سعيد . كانت غاضبة و لكنها تركت زوجها يشرح لي موقف العائله ،و يعدد الاثباتات التي تبرهن ان ذلك الصبي الدعي كاذب و لص ،و عرض علي في اخر الجلسه مبلغا من المال كي اخسر القضيه او على الاقل اتخلى عنها.

و كانت ليلى معجبه بموقفه ، و قد لاحظتها تتابع جدله مفتونه و فخوره و انتابني شعور غريب بسعاده غير مفهومة حين خطر على بالي ، فجاه ، انني استطيع تحطيم علاقتهما في دقائق لو نفضت الحقيقة ، امامهما بحذافيرها . و لكن هذا الشعور بالانتصار جعل امر اعلانه ثانويا .

و قلت لليلى انني ، بغض النظر عن احترامي لصداقتها مع زوجتي ، فانني لا استطيع ان اخذل موكلا استلمنني على ما يعتقد انه حقه و مصيره معا .

- ان لدي شيئا واحدا استطيع ان اعرضه امامكما : لن اكون مزورا ، و لن اكمل القضيه اذا كانت خارج نطاق العدل و الحق .

و قد فوجئت انا كما فوجئ سعيد بموافقة ليلى ، سعيدة على هذا العرض ، و في الحقيقه فقد كانت اكثر سعاده مما توقع كلانا ، فنهضت بقفزة مرحه عن مقعدها و مدت يدها نحوي و صافحتني :

- انا اعرف انك محام شريف ، و اقبل وعدك دون تحفظ.

لقد كانت واثقة تماما انه ، عاجلا او اجلا ، سيثبت حقها، و كان بوسعها كما يبدو ان تنتظر مطمئنه اذا كان النزال شريفا ، و قد اعطيتها انا الكلمة التي كانت تريدها ،فلم يعد ثمة ما تخشاه .

و حين خرجت مع زوجها من المكتب بدت صديقة حميمة تعتقد ان ما يحدث في قاعة المحكمة ليس هو الا معادلة حسابية اشارك انا من طرف اخر في وضع حلها الصحيح ، الذي هو بلا نقاش مصلحتها المحضة .

و قد توقعت ان تزورني منفردة فيما بعد ، فقد اضحت مهتمة جدا الان بتذكيري بوعدي ، ليس ذاك فقط ،بل كانت تريد ايضا ان تجعل من صداقتها الحميمة مع زوجتي و معي في ان واحد الرقيب الساهر الذي يعمل داخل ضميري لمصلحتها .

في الاسبوع الذي جاء بعد ذلك قابلتها مرارا في منزلنا ، و لكنها كانت توفر علي امر ايصالها، و لا اذكر انها تحدثت عن قضية الارث ابدا، الا حين جاءت الى مكتبي بعد ذلك وحدها لترجوني ان لا اشجع زوجها على القيام بعمل احمق لمصلحتها ، كان يحاول اغرائي او اغراء الصبي بمبلغ من المال لنتخلى عن القضية .

- " انت تعرف كم يهتم بمصلحتي ، و لكنه لا يعرف والدي – انا الذي اعرفه و اعرف انه لم يرتكب عملا من هذا النوع – احيانا الاحظ ان سعيد يشك في الامر ، و قد يدفعه هذا الشك الى اغراء الصبي بالمال ، ارجوك ان لا تشجعه ، لياخذ العدل مجراه و انا واثقة من النتيجة ."

و وجدتني اقول :

- لو كنت مكانه لاشتريت العالم كله لك .

و تضرجت فجاه ثم ابتسمت ، و هزت راسها كانها تشكر مجاملة رسمية ، و دارت دورة واسعة حول الموضوع لتعود من حيث لا تدري ، الى جانبه الاخر :

- كيف حال ديما ؟

ان ذلك يوي بشيء كثير ، كثير جدا ...لقد اصابتها كلمتي في قلبها فذكرتها بزوجتي ، لقد اعتبرت كلمتي غزلا غير شرعي ،ربما ارقها ، و لكنها لم تستطع ان تقبلها على محمل رسمي و عادي ، لقد اعتبرتها رغم كل شيء غزلا لا يمنع شرعيته الا معرفتها بديما.

كانت ديما بالمصادفه تقوم بزياره لشقيقتها في بغداد ، و بدت فرصتي الكبرى التي لا يمكن لها ان تعوض .

- ان ديما في بغداد ، هل تعرفين؟ حين تكون ديما غائبة انقطع عاده عن تناول وجبات منظمة .

و صمتت ، حين انفتحت حواس الانثى فيها على وسعيها ، كشبكات التقاط هائلة متحفزة للاصطياد . و مضيت :

- لو لم يكن سعيد يكرهني بسبب هذه القضيه اللعينة ، لدعوت نفسي للعشاء عندكما .

و ببطء و لكن بخوف و تردد ، قالت :

- انه مسافر .

- اذن لماذا لا نتعشى معا؟

- سيغضب .

و تنفست الصعداء ، وكففت عن السؤال ، ذلك ان الموضوع قد انتهى باسرع مما توقعت، و ربما دون ان تتوقع هي – كانت هناء قد غادرت المكتب فلبست معطفي ، و حين صرنا على باب المصعد امسكت يدها و ادخلتها امامي ، و قدت سيارتي فيما كان المطر ينهمر بغزاره الى مطعم بعيد ، لم نتبادل كلمة واحدة ، و لكنني اقنعتها بشرب كميه من النبيذ اكثر مما ارادت ، و اكلنا بشهية ، و حين دعوتها الى الرقص لم تتردد ، و رقصنا بوقار ، و في المره التالية ضممتها الي ففقدت انتظام حطواتها ، و قالت فيما كانت قريبة من اذني و مشيرة الى خطواتنا :

- لقد خرجنا عن القواعد .

و قلت بهدوء :

- ان القواعد الجديدة لا تكتشف الا بالخروج عن القواعد القديمة .

و دفعتني بعيدا عنها بعض الشيء ، ليس كثيرا ، و قالت :

- انت تعرف كم احب سعيد.

- انني لا اطلب منك ان تحبيني مثله .

- ماذا اذن ؟

- بالنسبة لي ؟

- نعم .

فعدت و ضممتها الي و قلت لها دون ان اتركها تنظر الي :

- انني اريدك فقط .

و لم تقل شيئا ، كانت تفكر مليا بالامر ، و لكن بقلق غامض، اخذتها الى الطاوله و شربنا قدحي نبيذ دون مناسبة ، و انتهت فجاة الى قرار:

كلا يا صالح ، اننا نقوم بعمل سيء ،

و التزمت الصمت ، كنت حزينا حقا و قد جعلت ذلك يبدو اكثر مما هو في الحقيقة ، و اخذت تراقبني بهدوء و ما لبثت ان قالت :>>

- كان لا يجب ان تقول ذلك ، على الاقل لم اكن اتوقعه منك انت .

- انا اسف ان كنت قد جرحتك ، و لكنني ارجو ان تعتبري صفاقتي اطراء مخلصا لانوثتك.. انني لا استطيع ان اكون قريبا منك الى هذا الحد و لا افكر بان.. حسنا، اتعتقدين ان الامر بالنسبة لي هو بسيط الى هذا الحد ؟ الا تعتقدين ان قوة اكبر مما بظنين هي التي دفعتني نحو امراة غير زوجتي منذ سبع سنوات ، ساعتبر دائما انني خسرت القضية الوحيدة التي يهمني ان اربحها .

و تضرجت.هناك طراز من النساء تثيرهن الكلمة العارية و تحطم كل مقاومتهن اكثر مما تستطيع اللمسة او تفعل ، انهن حين يستمعن الى الكلمة العارية يعتبرن ان اصعب حواجز العلاقة قد تحطم بل ان العلاقة العارية ذاتها قد حدثت فعلا و ان ليس هناك اي مخرج لانكارها.

لقد اخذتها الى السياره و صعدت معها الى الطابق العاشر ، و امام الباب وقفت اسالها بنظرات واضحة قرارها الاخير ، فقالت :

- ساقول لك لا ، مرة اخيرة ، و ارجو ان لا تشعرك هذه اللا باهاهة تغير في موقفك من قضية الارث .

و مددت يدي الى حافة الباب و تناولت المفتاح و انا اقول :

- ستربحين القضية انت ، قلت لا ام نعم، لقد اشتهيتك قبلها و الان ساظل اشتهيك الى الابد .

و فتحت الباب و خطت الى الداخل مترددة بعض الشيء ، و لحقتها دون ان اتوقف عن الكلام ، و حين جلست في الصالون احضرت لي بصمت كاسا من المارتيني ، و جلست على المقعد المقابل ، و قالت بهدوء :

- الان استطيع ان افهم لماذا تربح قضاياك دائما .

و ابتسمت ، ثم ضحكت و هي تدفع راسها الى الوراء ، فبدت ضجيعة تسخر من قدرة الرجل على امتلاكها ، و سالت و هي تطوي خجلها في ضحكتها حتى لا يستطيع الرجل ان يميز بينهما :

- هل فكرت جيدا؟

و قبلت هذا الحل دون نقاش ، لقد رمت المسالة على كتفي و اعتبرت نفسها في المكان الاقوى ، بالنسبة لها كان القرار اغلب الظن هو مزيج من اشتهاء لا يصد، و من صفقة قضائية صغيرة ايضا و من شعور صاعق انها انثى ما تزال تستعصي على الامتلاك من قبل رجل واحد ، و فوق ذلك كله من مصادفة مليئة بالتناقضات و الاثارة ، و مثل كل مصادفة ، فهي مغامره عابرة لا تترك في حياتها بصمات خطيرة .

و قد تم الامر بلا طقوس ، على ذلك المقعد الطويل في غرفة الجلوس ، و حين طحنتها اللذة القت براسها الى الوراء، و تصورتها لوهلة جثة .. و بدا لي ذلك التصور دون ضير ، فقد كان ذلك ، منذ الان هو الطريق الوحيد للخروج من حياتها دون ان افقدها و دون ان افقد ديما

و عاد سعيد مساء اليوم التالي ، و قد اتصلت ليلى بي لتقول لي ذلك ، كانها كانت تخشى ان ازورها ، و عرفت بعد ان وضعت الهاتف ، انها تتوقعني دائما ..

و لكن الامر بالنسبة لها كان اكثر من ذلك ، كانت الان تمتلك شيئا لا يعرفه سعيد ، و لا يمكن ان يعرفه ، لقد ارتدت الانثى فيها الى مواقعها الاولى الغامضة المليئة بالاسرار و الغموض المثير ، و صار سعيد بالنسبة لها رجلا لا يعرفها تماما، و بالتالي اكثر جدارة بالحب.

كيف يمكن للقانون ان يفهم ذلك؟ كيف يمكن له ان يعرف ان الحب الانساني لا يعني الانفراد، كيف يمكن ان يدرك ان ما فعلته ليلى لم يكن في الواقع الا دفاعا عن انوثتها امام الرجل الذي تحب حقا؟

و لكن الامر بالنسبة لي كان اكثر بساطة ، لقد حاولت ان اقول كيف استطاعت تلك اللحظات العابرة ، في النادي الليلي ان تنموا دون سيطرة من احد الى ذلك الحد.

ان الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ايها السادة ليست القانون ، ليست اي نوع من القانون ، لكن النساء ، اقول النساء ، لا المراة الواحدة ، لان المراه الواحدة سرعان ما تضحي عادة ، و كي نهز هذه العادة ، و نجعل منها شيئا ممتعا، فاننا مالزمون بكسرها.

ان ليلى الحايك لم تخن زوجها ، ستبدو هذه الجملة مضحكة للوهلة الاولى ، و لكن اذا كانت حقا غير صحيحة فان علاقة ليلى الحايك بزوجها حقا علاقة تعيسة ، و بماذا يمكن ان توصف علاقة يومية بين رجل و امراة الا بانها تعسة اذا كانت قيمتها كلها هي الفراش.

اننا حين نعتاد زوجاتنا و عشيقاتنا فان كمية الفراش في حبنا لهن تصبح كمية صغيرة ، و نحن حين نذهب الى الفراش مع امراة اخرى فاننا لا نعطيها حبا و لكن نعطي انفسنا اكتفاء من نوع لم يعد من اليسير الحصول عليه في فراش الزوج و الزوجة.

>ليلى الحايك لم تحبني . و انا لم احبها ، و قد ذهبنا الى الفراش تحت دافع من المصادفة و الاشتهاء و التغيير. و نحن لم نستعمل في علاقتنا حصة زوجها منها و لا حصة زوجتي مني ، و لكننا استعملنا القوة الفائضة التي افرزتها المصادفة و الشهوة خارج طوق العادة.

ان علاقتي بليلى الحايك جعلت من ديما انسانة اكثر معنى مما كانت و اقل عادية مما هي ، ان حبي لها لم يقل ، و لم يزدد بالطبع ، و لكنه اختلف ، و هذا شيء ضروري اذا اردناه ان يبقى .
ان الزوجة هي قيمة اجتماعية رائعة ، و لكن كي تظل انثى يتوجب علينا ان نعرفها اقل ، و كي نجعلها تتوقد يجب ان نحولها كلما مضت للفراش الى امراة اخرى ، امراة ثانية .
هل تفهمون؟
ان هذه المسالة لا علاقة لها بكمية الحب ، و لكن بنوعه و بتجدده فقط.
ان الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار ، و لكن ذلك القرار لا يعوض قرارا اخر في اعماق الزوج بان ينام مع امراة اخرى.
لم تكن علاقتي بليلى الم مصادفة توجت قرارين اتخذ كل منهما على انفراد في اعماقي و اعماقها ، و ربما دون وعي.
ان المصادفة ايها السادة، هي قيمة واقعية في حياتنا ، كالقانون و العدالة و الجريمة ، و قد جاءت تلك المصادفة كي تعطي ليلى فرصة لاثبات انوثة مسلوبة هي سلاحها الوحيد في اعماقها امام زوجها، و جاءت لتعطينى دون ان اقصد تجديدا لعلاقتي بزوجتي .
و رغم ذلك فهذا الشيء لا يمكن تفسيره بمعادلة حسابية باردة ، و انا ادفع الان ثمنا عادلا لهذه المصادفة غير المعترف بها، و قد اكتشفت ، انا الذي غشت سنواتي العشر الاخيرة بين مواد قانون حسابي صارم ، ان هذه المصادفة هي قوة مقررة ، فوقنا جميعا لانها تلبي حاجة في اعماقنا جميعا ، لها فعل الواقع.
لست اذكر شيئا بارزا حصل بعد ذلك.
لقد مضت القضية تتعقد و تزداد تعقيدا في اروقة القضاء ، و لسنا ندري الان كيف نبع عدد لا يحصى من الشهود.جاءوا من اعماق الماضي يتحدثون عن والد ليلى الحايك ، بصوره متعادلة ، و في الوقت ذاته لم تنقطع علاقتي بليلى ، على الرغم من انها لم تتطور .
لم يكن سعيد الحايك حتى على شك في علاقتنا ، ذلك ان ليلى لم تكن تحب رجلا اخر امامه ، بل كانت تحبه بصورة اكثر عمقا و تمكنا ، و لم تكن ديما ايضا تشك باي شيء ، لانني كنت و ما ازال الرجل الذي يحبها بصورة لا يمكن ان تفتر ، لقد كان الخطر الوحيد الممكن هو فقط في ان تنمو علاقتي بليلى وراء تلك المغامرة المصادفة . ان اضحي بالنسبة لها اكثر من مجرد وسيلة ، و ان تضحي بالنسبة الي مجرد عادة – اي حب.
سيبدو غريبا عليكم ايها السادة ان لا اجد فرقا بين العادة و الحب، و لكن الامر لو تفكرتم به قليلا ،هو ذلك.. و لذلك كنت اقول قبل قليل ان الفراش لا يكون عادة ، فهو شيء لا علاقة له بالحب ، و ان الحب الحقيقي ليس فراشا فقط.
لقد مرت ايام كثيره خلال الاسبوعين اللذين سبقا اعتقالي لم اشهد فيهما ليلى الحايك، كان سعيد في المدينة و كانت تحرص ان تقضي كل اوقاتها معه، و لست اذكر الان انها زارتني خلال هذين الاسبوعين الا مره واحدة، و قد جاءت برفقته بناء على نصح المحكمة لهما بان يحاولا الوصول معي الى صلح.

لقد جلست هناك مع زوجها ، كانها لا تعرفني الا كما يعلم المرء محامي خصمه فقط، و قد وافقت انا بدوري على صلح و لكني طلبت لموكلي ثلثي الارث ، و قد فوجئت ليلى و افتعل سعيد الحايك المفاجاة ، و لكنني كنت اعرف انه شديد الرضى ، و غضبت ليلى و شرحت لها انه ليس بوسعي ان ارفض شروط موكلي سواء اعتقدت بعدالتها او لا ، و ان جل الذي استطيع ان انصح به هو متابعة الدعوى في المحكمة .

و لاول مرة ذكرت ليلى شيئا عن وثيقة تستطيع ان تحسم القضية كلها ، و قالت ان تلك الوثيقة اضحت الان بحوزتها ، و انها ارادت الصلح ليس لانها تعتقد بصحة ادعاءات الوريث ، و لكن لانها لا ترى خيرا في ان تختصر الوقت ،و ان يخرج الشاب الارجنتيني الذي كان لسبب من الاسباب محط اهتمام والدها بمبلغ ما من الارث

و نظرت الى زوجها استعين به ، الا ان وجهه ظل جامدا ، فقلت لليلى انني مازلت عند وعدي ، و اذا استطاعت وثيقتها ان تحزم الامر ، فعليها ان تقدمها للمحكمة ، و انا اقبل بالنتائج.

و عند ذلك قالت ليلى ان الامر يحتاج الى شيء من الوقت ، و انها اخطات حين اعتقدت ان الشاب الارجنتيني يستحق العطف، و سترفض الان اي حل غير ذلك الذي ستقرره المحكمة .

و قال سعيد الحايك شارحا : لقد حصلت ليلى من حيث لا ادري على وثيقة مهمة ، تستطيع حسم القضية ، الا انها لم ترني الوثيقة حتى الان ، و لم تقل لي كيف حصلت عليها ...

و ابتسمت ليلى بثقة المراة التي تحتفظ لنفسها بسر رهيب ، و انا الذي اعرف هذه الابتسامة ، اعرفها لانني شريك في واحدة مثلها ، فهل اكون الان ، يا ترى ، ضحيتها ؟ ان ليلى يروقها ان تكون مطوية على سر، امام زوجها تحتفظ لنفسها بسري، و امامي الان تحتفظ بسر هذه الوثيقة الطارئة ، لم يكن زوجها اقل حيرة مني ، و بدت لي تلك اللحظة مستمتعة حتى الثمالة حين نجحت في وضعنا معا داخل قفص، كحيوانين حبيسين يجهلان الحقيقة .

و قلت لها محاولا استدراجها :

- دعيني ارى تلك الوثيقة لاقدر لك قيمتها في دعواك .

و ابتسمت، تلك المراة المتمنعة التي يروقها ان تكون صعبة على الامتلاك:

- لن تلعب هذه اللعبة معي ، انت الخصم الذي يريد لموكله الثلثين ، و ستخرج من هذه القضية كلها بايد بيضاء .، تصفر.

و استدركت :

- هل اتفقت مع ذلك الافاك على مبلغ مقطوع ام على نسبة مئوية من الارث؟

- على نسبة مئوية مما استطيع تحصيله له.

- ايها المسكين ! اذن ستخرج بلا اي قرش.

و تحديتها :

- لا تلعبي على اعصابي ، ليس ثمة وثيقة في الامر ،

و هزت راسها باسمة :

- سنرى.

و سالت زوجها :

- اتعتقد حقا يا سيد سعيد انها تمتلك تلك الوثيقة ؟

- لست ادري .

- لو رايت تلك الوثيقة لصار بمقدورنا ان نصل الى صلح.

و لكنها نهضت ، و حين شاهدت خصرها داخل ذلك الثوب الاسود الضيق، و ابتسامتها الغامضة ، اكتشفت حقا كم يمكن للمراة الغامضة ان تكون مثيرة حتى لو كانت تطوي تحت غموضها وثيقة لا تهم احدا.انها تعطي نفسها دون ان تعي تماما ، تلك الانكماشة الانثوية الفريدة ، التي تجعلها تبدو ابعد من ان تؤخذ، و بالتالى اكثر جاذبية و نداء ، و حين كنت اودعهما امام طاولة السكرتيرة ، في الخارج، قال لي سعيد الحايك انه يعتزم السفر غدا لمدة لا يستطيع معرفتها الان ، و رجاني ان اقدم النصح لليلى بصفتي خصما شريفا ، اذا ما احتاجته اثناء غيابه.

و سافر سعيد كما قال صباح اليوم التالي ، صباح اليوم الذي حدثت فيه الجريمة ، و طلبت من هناء في الظهيرة ان تصلني بليلى ، التي قالت لي انها تتوقعني هذا المساء ، في تمام السابعة .

عند الظهيرة اشتريت زجاجة عطر من النوع الذي تستعمله، و وضعتها في درج مكتبى .

في السادسة ، و هو الموعد المحدد لانتهاء العمل في مكتبي ، انهيت اوراقي و غادرت المكتب، و قمت بجولة طويلة في سيارتي ، و تذكرت انني نسيت زجاجة العطر ، فعدت الى المكتب ، كان مغلقا بالطبع ، ففتحته ، و ذهبت الى غرفتي ، و حين كنت احاول وضع الزجاجة في جيب معطفي الداخلي ، دخل البواب ، الذي لفت نظره الضوء في غير وقت العمل ، و ما لبث ان اعتذر ، و قبل ان يخرج ، راني البس قفازي .

نزلت ، و قدت سيارتي ، و اوقفتها في مكان بعيد، و اخذت المصعد الى الطابق العاشر .

قرعت الباب مره او مرتين فلم اسمع جوابا، شعرت بالغيظ، و اكتشفت في لحظة واحدة ان كل العالم الذي بنيته في راسى هو وهم محض ، و كي اوضح لليلى انني جئت ، افرغت علبة سجائرى ، و كان فيها خمس لفافات ، من ثلاث ، و حاولت وضعها على حافة الباب كي تلمسها حين تجيء لتاخذ المفتاح، ثم اكتشفت ان ذلك شيء لا يبرر فيما لو شاهدها اي انسان هناك،فاستعدتها و القيتها امام الباب كانما عرضا.

و حين اخذت المصعد و خرجت من البناء رايت ان ما فعلته كان عملا صبيانيا ،و ان زوجها قد يرى العلبة ، فعدت ادراجي .

و فيما كنت انتظر المصعد ، تجمع معي ثلاثة رجال معي بانتظاره ، و شعرت بالحرج ، ثم ان الامر كان مجرد وهم ، فزوجها سيغيب اسبوعا على الاقل ، فتركت المكان مرة اخرى.

قدت سيارتي على الشاطئ ، و لاننى كنت عائدا الى البيت ، فقد قذفت بزجاجة العطر ، مغتاظا و حائرا ، الى البحر ، ثم اشتريت من مكان قريب ، علبة سجائر اخرى .

كنت مضطربا و غاضبا حين فتحت الباب ، و لم اتناول العشاء، و مضيت صامتا الى فراشي ، و لم اتبادل اي كلمة مع زوجتي .

و في التاسعة و النصف صباح اليوم التالى ، اوقفت بتهمة قتل ليلى الحايك .

امضيت الليلة الاولى في حياتى مسجونا في غرفة ضيقة ، ليس فيها الا لوح خشب مرفوع على اربع دعائم ، و مغطى بفراش رقيق ، و مقعد.تجولت من الحائط الى الحائط واضعا يدي في جيبي ، محاولا ان اكتشف مكاني بالضبط.و لم اكن استشعر قلقا ، و لكن نوعا من الغضب فقط.و كانت المفاجاة هي التي هزتني و ليست التهمة . ثم انني لم اكم معتادا النوم مبكرا .

كان المستقبل مازال حتى تلك اللحظة ، يعني شيئا .و كنت اقيس وضعي في تلك الغرفة البعيدة عن كل شيء ، بالمقارنة مع اطلاق سراحي .الذي كنت متاكدا منه ، و كان غريبا حقا ان اجد نفسى في موقف ليلى تماما ، اعني في طرف مسالة حسابية يقوم شخص ما على الطرف الاخر و لا اعرف من هو بحلها معي . معركة شريفة بوسعي ان انتظر مطمئنا نتائجها.فقط لو اعرف بالضب من هم خصمي.

لقد قررت ان اعترف بعلاقتي غير المشروعة بليلى ، هذا شيء لم اكن قد اكتشفت اي طريقة لتجنبه، و بدا لى انني سادفع ثمنا غاليا لذلك الاعتراف. و انني لن افقد بتعده زوجتي فقط، و لكن سمعتي ايضا ، التي تعتبر ، في مهنة مثل مهنتي، اهم بكثير من الكفاءة.

و لست ادري متى غفوت، و لكننى اعرف انني حين فعلت ، لم اكن قد توصلت بعد الى تقويم كامل ، و حقيقي لوضعي،فالعزلة ، على الرغم من قصرها، و فقدان اي تفاصيل ، و عدم معرفتي الصحيحة بليلى و بزوجها ، و بظروف حياتهما، كانت تحول دون اكتشاف موقعي من هذه المسالة.

و قبل الثامنة ، اخذت بحراسة ملفتة للنظر الى غرفة المحقق من جديد حيث اصطف ثلاثة رجال اعرف اثنين منهم فقط، بانتظاري .

لقد قدمت القهوة اولا ، و سمح لي بالتدخين، و كان الرجال الثلاثة يبتسمون كلما تلاقت ابصارنا عمدا او بالمصادفة، و كانت هذه المقدمة معروفى بالنسبة لى ، و قديمة جدا ، و لكنها مفيدة للطرفين، و اخيرا بدا الرجل الذي لا اعرفه يتحدث و كانه في سهره و ليس في تحقيق ، كان يدخن و هو يذرع الغرفى جيئة و ذهابا واضعا يديه وراء ظهره ، واقفا بين الفينة و الاخرى ، و لفافته تتدلى من شفتيه، كضيقا عينيه ليتجنب دخانها الثقيل ، اليفا و عائليا و منطقيا بصورة لا تبدو، من فرط التجارب ، الا مخلصة.

- نحن اسفون جدا يا استاذ صالح، لقد اضطررنا ان نمنع عنك المقابلات ، لقد عاد السيد الحايك من رحلته امس ، و اراد ان يقابلك ، و تستطيع ان تفهم لماذا منعناه ، اننا لا نشعر بالاسف هنا ، و لكن فقط حين منعنا عنك زوجتك.

و نظر الى المحققين نظرة عابره ، كانه يستشيرهما في اهلية هذا المدخل ، ثم اكمل :

- جاءت السيدة زوجتك مع الاطفال

و نظر الى الارض و بدا فورا تعسا :

- كان منظرهم جميعا محزنا حقا .

و قلت كي ادعه لا يكمل هذا الطريق :

- و لكن يا سيدي لا استطيع ان ارى مبررا لمنع المقابلات ، في هذه المرحلة على الاقل. كنت اود فعلا مقابلة السيد الحايك، لماذا منعتموه؟

انه زوجها كما تعلم ، ثم انه في حالة سيئة ، لقد حاول الانتحار بعد سماعه النبا ، و لكنه انقذ في اخر لحظة.

- و زوجتي ؟

لقد اقتضى استكمال التحقيق هذا الاجراء..

و لم استطع منع نفسى من العودة الى الموضوع :

- اخشى ان تكون قد فقدت اعصابها.

- ليس تماما ، انها واثقة انه لا علاقة لك بالامر ، حتى انها كانت تنوي ان تقول ان علبة السجائر ليست لك، و لكنها متالمة لان الحادث ، حتى لو ثبتت براءتك بعده ، سيلحق الضرر بعملك ، و بسمعة العائلة .

و فورا قررت ان انكر علاقتي بليلى ، ليس من اجلى ، و لكن من اجل زوجتي ، لقد دخلت الان في القضية و صار اعترافي بعلاقتي غير المشروعة بليلى خسارتها ايضا ، و حتى لو ثبتت براءتي المطلقة من الجريمة فان مثل هذا الاعتراف لن يقضي علي و على مستقبلى فقط ، و لكن على ديما ايضا ، و الاطفال ، و ذلك الحب الغريب ، الذي لا يصدق و الذي اكنه لها .

و سالت :

- ان ما يهمني ان لا يكون الحادث او انتم قد اوحيتم لها بان علاقة غير مشروعة كانت تربطني بليلى ؟

و تبادلوا النظر بصمت ، ثم تولى رجل اخر الجواب :

- في الواقع سالناها عما اذا كانت تعتقد بوجود مثل هذه العلاقة ، لقد غضبت اشد الغضب ، و وجهت لنا بعض الاهانات .

و ابتسم متسامحا و ناول الحديث لجاره :

- و ليست لدينا اسباب لمثل هذا الاعتقاد ، كل الذين يعرفونكما يستبعدون هذا الاحتمال ، حتى زوج ليلى الذي حاولنا اقناعه بهذا ، ان سمعتيكما ...

و صمت ــ او واصل الكلام ــ لست اذكر ، و لكنني كنت قد انتهيت الى قرار ، لن اعترف بعلاقتي بليلى ، اولا لان تلك العلاقة ليس لها ادني ارتباط بالامر كله ، و ثانيا لان ليلى لا يجب ان تدفع ثمن اعترافي الذي لن يحل اللغز باي حال من الاحوال ، و ثالثا لان مثل ذلك الاعتراف سيدمر ديما و الاولاد و انا ، و الى ماذا سيؤدي ؟ انه ليس ورقتي الرابحة في معركة براءتي ، فهو يثبت امكانية مفاجئة لحدوث الجريمة و لا يثبت عدم علاقتي بتلك الجريمة .

و سال المحقق الاول الذي كان قد اجرى تحقيق امس السريع :

- هل نبدا ؟

و لم ينتظر جوابا ، فقد جلس وراء مكتبه و ثبت نظارتيه و فتح اوراقه:

- ما هي علاقتك بليلى الحايك ؟

- انها صديقة قديمة لزوجتي ، تلاقينا مصادفة في ناد ليلي ، و لست اذكر الان كم مرة رايتها بعد ذلك ، لقد زارتني مع زوجها عدة مرات في مكتبي بشان قضيه ارث العب انا فيها دور وكيل الخصم.

- و ماذا كانا يريدان منك ؟

- اقناعي بالتنازل عن وكالة الخصم.

- هل عرضا رشوة ؟

- الزوج عرض ، و لكنني رفضت .

- و الزوجة ؟

- الزوجة قبلت وعدا مني ان اكون قانونيا تماما و شريفا .

- لقد زارتك الزوجة منفردة بعد ذلك ، لماذا ؟

- كانت تخشى ان يقوم زوجها باغراء الخصم ، و كانت تريدني ان احول دون ذلك .

- مقابل ماذا ؟

- ليس مقابل اي شيء ، و لكن التزاما بالوعد الذي قطعته لها ،

- هل كنت واثقا من حق موكلك في القضية ؟

- ان المحاماة لا تتعامل الا بالوثائق و ومواد القانون ، و على ضوء هذين الامرين ، كان يتوفر احتمال ما .

- الم تعرض عليك السيده الحايك في اية مره من المرات ان تتخلى عن القضية مقابل رشوة ؟

- كلا ، و لكن في اخر مره زارتني مع زوجها ، كانت تبدو راغبة في المصالحة .

- لماذا ؟

- لانها ملت متابعة الموضوع ، كما اعتقد ، و لانها رات ان لا مانع من خروج موكلي بحصة صغيرة .

- و هل شجعتها انت ؟

- كلا .

- لماذا ؟

- قلت لها ان موكلى في حالة مفاوضات ، لن يقبل بغير الثلثين ،

_و هل اشترط فعلا موكلك هذا الشرط؟

- كلا

- فلماذا اذن عرضته عليها ؟

- كنت اريد مصلحة موكلى .

- على الرغم من وعد الشرق الذي منحته لها ؟

و صمت و بدات كتابة مطولة ،ثم قدمت لي لفافة ، و حين اشعلتها لاحظت ان يدي اخذه في الارتجاف ، لاول مرة منذ بدات تلك القضية ، و لا شك ان ثلاثتهم لا حظوا ذلك ، فتبادلوا النظر ، ثم بدات الجولة الاخرى :

- حين عرضت على ليلى و زوجها ان الخصم كان يريد الثلثين ، هل كنت تعتقد انهما سيوافقان؟>>

- كلا

- اذن لماذا عرضت هذا العرض؟

صمت ، مره اخرى ، ثم كتابة ، و سؤال آخر :

هل تعتقد ان ما يتوفر لديك من اوراق ووثائق كان كفيلا بانجاح القضية لمصلحة موكلك ؟ و فكرت قليلا ثم قررت :

- كلا.

ماذا كانت غايتك من مثل هذا العرض ؟

- صمت ، كتابة طويلة ، تبادل نظرات ، لفافة اخرى اظهرت اننى اطفات لفافتي بعد رشفتين فقط ، ثم نقلة واسعة :

- هل هذه العلبة لك ؟

- اجل .

-هل كنت تزور السيدة الحايك تلك الليلة ؟

- كنت احاول زيارتها ، لكني لم اجدها .

- قلت امس انك كنت تشرب القهوة على الشاطئ ؟

- كنت اقصد الفتره التي سبقت زيارتي للسيدة ليلى .

- و لماذا زرت الضحية ؟

- لمتابعة الحديث عن الارث ...

- هل طرأ أي جديد على هذه القضية منذ زارتك مع زوجها ليستلزم منك زياره لها ؟

- كانت تحدثت عن وثيقة حاسمة و كنت اريد تقويمها .

- هل كنت تعرف ان زوجها غائب ؟

- نعم

- ما هو وضعك المادي ؟

- انني اجتاز بعض المتاعب الآن ، و لكن هذا شيء عادي عابر .

و مضت لحظة صمت ، ثم قذف المحقق امامي علبة السجائر و سأل :

- كيف سقطت هذه العلبة منك ؟

- لقد رميتها لانها كانت ..

و كنت اريد ان اتابع و اقول لانها كانت فارغة ، الا انني لمحت من جانبها المقصوص لفافتين فتوقفت ، و فجاة انفتح باب مغلق في جبيني ،و بين دفتيه تكشفت لي صحاري مجهولة بلا حدود.مستنقعات من الرمل الشفاف و أنا غارق فيها الى عنقي ، و اخذت الغرفة ، والرجال ، و الايام الماضية ، و كل شيء في هذه الحياة يدور في دوامة بلا قرار ، اعصار شيطاني دق نفسه كلولب فولاذي في جمجمتي ، و اخذت اسمع صرير زنزانات تمتد الى النهاية ، و زعيقا و بكاءً و قرع طبول ٍ مجهولة ، و نباحا و حشياً ، و عويل رياح مجنونة ، و الها اسمه المصادفة يقهقه ملء فكيه العاريين ...

ووراء المحققين الثلاثة ، و القانون و الجدار و الكلام كله ، حلس ذلك الاله على عرش دموي صاخب ، كان الان قد صار خصما ، و تكشف لي في لحضة كلمح البرق ، انني انازل شيئا فوق القانون و المنطق و لكنه راسخ مثلهما ، حقيقي اكثر منهما ، لانه – ببساطة – واقع مثلهما و ربما اكثر . اله اسمه المصادفة ، و لست انا الذي يستطيع فك اساري من اظافره الكريهة ، و لكن صدفة اخرى فقط.

و فيما كنت اسمع عبر جدار كثيف من الاعاصير ، كلاما غير مفهوم ، و اسئله تعاد و تكرر و تصرخ و تدق على الطاولة ، و تنهال على وجهي ، كان هرم آخر من الصخب يرتفع بسرعة لا تصدق في اعماقي : عشرات الالوف من العبيد يحملون كالنمل حجارته الدقيقة و يكومونها في صخب و عويل تحت سماء من القهقهات الراعدة ، و في وسط كل شيء كان الشاهد الوحيد صريعا مضرجا بالدم في غرفة مغلقة .

و اطبقت شفتي ، لاحبس الكلام المجنون ، اطبقتهما في وجه كل شيء ، تاركاً القضية كلها التي حدثت و انا مطبق شفتي تكمل رحلتها في عالم يستعصي على الضبط.

قال المحقق :

- ان الصمت لن يساعد في حل القضية .

انتظر الجواب ، و لكن الاله الجالس وراءه مضى يقهقه ، جاعلا منا كلينا في تلك الغرفة المغلقة سخرية مضحكة تقع كلها خارج الموضوع.

اتفهمون ايها السادة :

ان المعركة لم تكن معكم ، و لم تكن مع القانون ، و قد اخترت النزال العادل الذي يقع وراء منصاتكم و اقفاص الاتهام ، و تركته يحاكمني وحده.

و مضى الرجل امامي مصراً على معقده :

- حتى لو صمت، فلدينا كل جوانب الحقيقة ، انت رجل مشهور يا استاذ صالح ، و القضية رهيبة ، كثير من الناس شاهدوك تلك الليلة و قد جذبتهم الفضيحة الى الشهادة من تلقائهم ، بعضهم ليساعدوك و بعضهم ليقولوا الحقيقة ... و لكن لدينا من كليهما اوراق لا يحصيها العد.

و اطبق صمت ثقيل . و تبادل الرجال النظر في حيرة مكتومة .

- لعلك تريد ان تستريح ، او ان تفكر في شيء اخر تقوله ، انت رجل ذكي و شهير و تعرف القانون جيدا ، بوسعك ان تكون اذا شئت معينا للعدالة كي تاخذ مجراها ، او عائقا صعبا امامها ، و وحدك الذي يقرر .

و قاموا جميعا و بقيت جالسا ، غارقا في ذلك المدى المجهول الذي لا يستطيع اي رجل يعتقد ان العالم مضبوط في قفص معرفة ابعاده و معناه ، نحن الان نلعب لعبة مضحكة ، نقيس العالم كله بمسطره اتفقنا عليها دون مشاورته ، نمنح الظواهر كلها اسماء و اوصافا دون ان نعرف ما هي، ما هي حقيقتها و حوافزها ، ثم نعتقد ان ذلك كله قد مكننا من الحقيقة كلها . نحن اغبياء ايها السادة ، شديدو الغرور و الصفاقة ، و لم اكن لاستطيع ان اقول ذلك كله لكم و انا الذي اعرف كيف تضحي النصوص في حياة الانسان الها بدائيا جديدا يفسر كل شيء و يحكم على كل شيء، فاثرت الصمت تاركا الهكم القزم الكسيح الذي نصبتموه على قمة هذه الحياه يصارعها وحده .

اما انا فكنت اعرف اني مثلكم خارج الموضوع كله .

لا .. لم اكن اجهل معنى القرار الذي اتخذته ، و لم اكن احاول ــ كما قال الادعاء فيما بعد ــ لعب لعبة ذكية ، لقد كنت ادرك قراري و نتائجه ادراكا كاملا ، بل انني اجرؤ على القول اني في تلك الحظة على الاقل ، كنت ادرك معناه اكثر من اي انسان اخر.

لقد عشت كل عمري بين مواد القانون .. ليس ذلك فحسب ، بل تعرفون جميعا انني كنت اجيد استعمالها لخدمة دفاعي في اية قضية ، ان الاعتراف الان بانني كنت في احيان كثيرة انجح في تبرير وجهة نطري بمواد قانونية وضعت لتبرير وجهة نظر معاكسة اعتراف لا يضيرني .

و لكن تلك اللحظة بالذات كنت بين فكي كماشة قوية طاحنة ..

فانا المتهم ، و انا الذي ينبغي ان يدافع ، و بغض النظر عن ان مبدا الدفاع ذاته في قضية تتعلق بي ، من هذا النوع كان غير منطقي ، فانني استطعت منذ البدء ان اشم بوضوح اطراف الفخ الحديدي الذي اطبق علي كما يطبق فخ صيد الضباع على كلب طريد في سهوب الجليد.

لقد عرفت تماما ان لا فرار .. و عرفت انه سواء اكنت ضحية مجرم تفوق على كل احتياطاتي و اوقعني ، ام كنت ضحية شيء لا يعترف به القانون اسمه المصادفة ، فان الهروب من الفخ اضحى مستحيلا...
ثم ماذا ايضا ؟
لقد كنت انا جزءا من الجريمة ، رضيت ام ابيت ، كنت حجرا في ذلك البناء الدموي ، استخدمت من قبل قوة مجهولة استخداما بارعا ...
هل كانت حقا قوة مجهولة ؟!! لم اختر بنفسي ـــ لسبب فوق قدرتنا جميعا ـــ الدخول فيه و لعب دوري الذي انتهى تلك النهاية الفاجعة ؟ الم اخط بنفسي الى القصة دون اي دافع خارجي ، اكان من الممكن ان يتم الامر على الصوره التي انتهى اليها لو لم اكن موجودا ، و لو لم اختر ذلك الدخول الغريب في بنيا ن الجريمة الدموي ؟
و على اي حال .. كان المحققون قد احتاروا قليلا امام صمتي ...
و لكن القانون قد وضع لكل حالة علاجها وفقا لمسترطه المغروره التي تتصدى لقياس العالم و الناس كيفما كانوا و اينما كانوا..
و هكذا قرروا ان يجدوا شخصا اخر يتحدث عني !
لم يجد اول محام عينوه ليدافع عني اي شيء يقوله للمحكمة حين وجه بغزارة الدلائل ضدي من ناحية و بصمتي من ناحية اخرى ، كان على اي حال محاميا مبتدئا اراد ان يخطو الى عالم العمل فوق سمعتي ، منتهزا تلك الفرصة الغريبة التي تعطى باسم القانون لرجل يرى ان مهمته هي البحث عن مخرج لرجل اخر من مازق يعرف عنه اقل ، و ما لبث هذا المحامي ان رفض اكمال مهمته.
و حاول محام اخر لم اكم قد سمعت عنه قبل ذلك اليوم ان يتولى الامر ،و قد صرف ساعة كاملة في زنزانتي يتكلم بطيبة صبوره عن حق الانسان في الحياه ، و في الدفاع عن نفسه ، و كان طريفا حين اقترح علي ، بعد ان اعيته الحيلة ان يسالني اسالة لا احتاج في جوابها الا ان اهز راسي نفيا او ايجابا ، و لما فشل في هذه اللعبة الطريفة ايضا ابلغني ، و هو غاضب محمر ، انه يقبل التحدي و سيواصل مهمته الى نهايتها الغامضة.
كنت قد وضعت في زنزانة منفرده ، شديده القذاره و مظلمة بعض الشيء ، و ما لبثت ان تغيرت حياتي كلية ، و استطاع ذلك الشيء الرهيب الذي يعيش فى اعماق كل انسان و الذي نسميه اهليته للحياة ان يعيد ترتيب القيم و البديهيات في راسي بصورة تتكيف فيها مع ظروفي الجديدة ، و شيئا فشيئا تضاءل العالم الخارجي ، و كاد يختفي ، بكل ما فيه هو الاخر من بديهيات لا يمكن استعمالها في زنزانة .
و قد مضيت صامتا ذات يوم بين حارسين ، الى حيث قابلت زوجتي و اطفالي من وراء شباك حديدية ثقيلة ، كانت ديما منهكة و حزينه و محطمة ، و بدا الاطفال مدهوشين قليلا ، و حين تمسكت بالشبك ، قربت ديما شفتيها الباردتين و قبلت اصابعي و اخذت تبكي ، و يبدو انها رفضت ان تتحدث ، او تلفظ اي كلمة ، لانها كما اخمن ، قد تعرضت لضغط طويل من المحققين لحثها على اقناعي بالكف عن الصمت ، الامر الذي جعلها تعتقد ان وراء صمتي توجد خطة ما لا تعنيها و ليس من اللائق افسادها .

لقد قاومت بقوة لم احتج الى مثلها طوال حياتي ،ان احكي كلمة لزوجتي او ان اترك دموعي تسقط امامها ، و فقط حين اخذوني بعيدا عنها اطلقت لعيني العنان .

و كانت المحاولات لحملي على الكلام لا تكاد تنتهي ، و اعلن المحققون عجزهم ، و كذلك الطبيبان الذان احضرا لفحصي و اقناعي ، فيما ازداد اصراري الصامت على ان القضية برمتها لا يمكن ان تشرح خلال كلمات فقط .

لقد قلبت في راسي طوال فتره وجودي في السجن كل الاحتمالات التي كان من الممكن ان تطرا. و اكتشفت تماما ان قصة علاقتي بليلى لا يمكن ان تساعد في تخفيف الاتهامات ضدي و لا يمكن ان تكون الا قصة اخرى تضاف الى الجريمة ، كمشهد جانبي يهم الفضوليين ، و يعطي للقضية ابعادا مثيره ، و ليس من الممكن ان اشرح للقضاء حقيقة قضية الارث ، فلست املك اي اثبات لصحة اقوالي ، و حتى لو ساعدت تلك الحقيقة على كشف جانب من الموضوع فانها لا تفسر شيئا ، ثم انها كافية لتحطيم حياتي ، بما يشبه القتل .

لقد سرت قانعا بان الذي رتب القصة كلها هو " شيء" اكبر من تسلسل الحوادث المنطقي ، و ان البطل الوحيد فيها هو قوة لا يستطيع القانون الاعتقاد بوجودها الا اذا جاءت لتثبت بطلان شيء حدث و ليس حين تكون هي ذاتها وراء شيء يحدث.

و ثبتت عزلتي و قيمي الجديدة هذه الاستنتاجات ، فان انقطاعي عن الناس و عن الحياه اليومية التي عشتها و يعيشها الناس حعل المعاني العادية التي نعرفها عن الحياة تتراجع رويدا رويدا و تذوب امام نمو قيم جديدة .

من نحن ايها السادة؟

ماذا نفعل ؟

ماذا نريد ؟

لماذا نحن ؟

اسئلة نطرحها دائما و نحن على قيد الحياة ووسط صخبها ، و لكنها اسئلة تتراجع في غمار حركة اليوم و الدوران اللانهائي لايامنا جميعا ، و ليس ثمة مناص من مواجهتها حتى الاعماق حين يكون الانسان منفردا معها تماما .

لو كانت براءتي تعني شيئا لكان من المحتمل ان تتراجع تلك المواجهة الصارمة للاسئلة المقلقة ، و لكنني ، حتى لو برئت ، فساكون قد دفعت ثمنا غاليا جدا لما هو حقي المحض، انني العب ورقتين خاسرتين ، مع قوه مجهولة حكمت علي مسبقا بارتكاب جريمة لم انفذها .

و حين عقدت الجلسة الاولى كانت القاعة مزدحمة، و سجلت لي صور لا يحصيها العد، و تلاقت عيناي حين حدقت الى الصفوف الامامية بعيني زوجتي و سعيد و هناء و المحامي الاشيب و وجوه عديدة اعرف بعضها و لا اذكر بعضها الاخر .

كانت الاستجوابات دقيقة ، و ذات ايحاءات ليس بوسع الكثيرين ممن لم يتمرسوا بالمهنة ان يعرفوا اين ستوضع في هيكل الاتهام ، و لكنني كنت اعرف.

لقد استدعي سعيد في البدء ، و كما توقعت فانه لم يشر الى قضية الارث، و لكن شهادته كانت على اي حال جيدة : فقد رفض الاحتمال القائل بوجود علاقة بيني و بين زوجته ، ليس بسبب ثقته بليلى فقط ، و لكن ايضا لثقته بي انا ايضا ، و مضت الاسئلة سريعة و في مكانها :

- اين كنت يوم وقعت الجريمة ؟
- في الارجنتين .
- لماذا ؟
- كنت احاول الاتصال بخصم المرحومة في قضية الارث.
- لماذا ؟
- اردت الوصول الى تسوية .
- و هل توصلت ؟
- نعم ، قبل الصبي عشر الارث ليسقط الدعوى
- و لماذا اتصلت بالصبي و ليس بالمتهم ؟
- لان السيد صالح كان قد طلب لموكله ثلثي الارث .
- هل كانت زوجتك على علم برحلتك الى الارجنتين ؟
- اجل ، و ان كانت غير واثقة من نجاحها .
- هل كانت زوجتك تحاول ايجاد حل وسط مع خصمها ؟
- كانت ترفض في البدء ، و لكنها اخيرا قبلت .
- لماذا قبلت ؟
- لقد اعتقدت ان والدها لسبب من الاسباب ، كان مهتما بام الصبي ،رغم انها كانت متاكدة من انه ليس ابنه ، و لم تر بالتالي مانعا من مساعدته .
- و لماذا لم تطرا لها هذه الفكرة منذ البدء؟
- لقد قررت فجاة ، قبل يوم فقط من سفري ، ان تنتهي من القضية بطريقة خاصة ، و اقنعتني انها ليس بحاجة الى ارث والدها بسبب وضعنا المادي ، و انها تنوي ان تخصصه لبناء مدرسة لايتام اهل القرية التي جاء منها والدها و لفقرائها ، كانت تقول لى انها تتنلك وثيقة حاسمة ، و انها تستطيع ان تنهي القضية لحظة تشاء ، و لكنها لم تمانع في محاولة تسوية سريعة .
- و ماذا تنوي ان تفعل بالارث الان ؟
- بالطبع تحقيق ما ارادت و قد استكملنا كل شيء في الحقيقة .
- اي انك لم تنل شيئا من ذلك الارث ؟
- كلا
- بمن تشك؟

- لا احد ، كانت امراة بدون اي عدو.
- هل تشك بالمتهم ؟
- اطلاقا كلا .
- اذن لماذا تعتقد انه زارها اثناء فترة غيابك ؟
- لقد كان صديقا ، و زوجته صديقة لزوجتي ، و لست ادري كيف و لماذا قام بالزياره ، و لكنني اعتقد انه قام بها ضمن هذه الحدود ، و لسبب يتعلق بها .
-هل تعرض البيت الى سرقة ؟
-بعض المجوهرات فقط .

و كانت ثمة اسئلة اخرى عديدة لم اعد اذكرها الان .و حين غادر سعيد منصة الشهادة هز راسه مواسيا .

لقد بكت زوجتي ، على منصة الشهادة ، اكثر مما تحدثت ، روت قصة تعارفنا مع ليلى و زوجها ، و اسقطت حديثي عن ليلى ، و اكتفت بالتاكيد على انني قلت لها بان ليلى سيدة بليدة ، و ذكرت ان ليلى قالت لها بانني تصرفت معها يوم اوصلتها الى بيتها كتلميذ مدرسة يوصل خالته الى كوخها ، و روت لها ليف انني تضرجت خجلا حين اطرت طول قامتي بعد ان ناولتها مفتاح المنزل من فوق الباب ، و انني حين راقصتها كنت في منتهى الحرج و الوقار ، و رفضت ديما اي حديث عن علاقة غير شرعية بيني و بين ليلى ، و لكنها لم تستطع ان تفسر زيارتي الاخيره لها .

و جاء دور هناء ، فتحدثت عن هاتف طلبته لي ظهر اليوم الذي حدثت فيه الجريمة ، و لكنها قالت انها لا تعرف ماذا دار فيه من حديث مع ليلى ، و ذكرت ان عدة مكالمات هاتفية كانت تحصل بيننا و لكنها لا تعرف طبيعتها ، ثم روت تفاصيل عن حسن سلوكي و سمعتي ، و نفت ان يكون هناك اي احتمال بعلاقات او اعمال غير مشروعة يمكن ان اقوم بها .

و تحدث رجل عن قصة المصعد يوم الجريمة ،و قال انني كنت ابدو مضطربا و لكن مظهرى لم يكن يدل على اي عراك .و انني لفت نظرهم فقط حين غيرت رايى و عدت ادراجي دون ان اخذ المصعد.

و قال بواب العماره انني لم اوقف سيارتي امام البناء بالرغم من وجود متسع ، و شهد حارس انني كنت قد اوقفت سيارتي على بعد خمس دقائق مشي من مكان البناء الذي تسكنه ليلى .

و شهد بواب العماره التي يقع فيها مكتبي بانني رجل مستقيم ، و روى انه في ليلة الجريمة شاهد ضوءا في مكتبي ، و حين دخل راني اضع شيئا متطاولا في جيب معطفي الداخلي و لكنه لا يعرف ما هو ، و حين سئل عما اذا كان يعتقد انه سلاح قال انه لا يستطيع ان يجزم ، و سئل عما اذا كان يشبه المسدس او السكين ام البلطة ، فقال انه اقرب الى السكين ، و جاء احتجاج الدفاع على هذا السؤال متاخرا .

ثم سئل ان كان قد لاحظ شيئا اخر ، فقال انه راني البس قفازاتي .

و قال رجل لا اعرفه انه شهدني انزل من سيارتي على شاطئ البحر قرب دكانه فاقذف شيئا هناك ثم اتجه نحوه فاشتري علبة سجائر ، وقال انه فيما كان يعيد الي بقية النقود لفتت نظره الطريقة الغريبة التي افتح فيها

علبة السجائر ، و انه حين قرا عن الجريمة في الصحف و خصوصا عن قصةالعلبة ، راي ان شهادته قد تفيد العدالة .

وقال ان ما رميته في البحر كان رزمة متطاولة لم يستطع ان يتبينها بوضوح ، و لكنه نفى ان يكون قد لاحظ على مظهري اي اثر لعراك او تصرف غير طبيعي .

و جاء شهود اخرون تحدثوا باسهاب عن فضائل ليلى الحايك ، و بعضهم تحدث عني بعطف و لم يوفر مديحا.

و تحدث اخرون عن استقامة سعيد الحايك.

و حين كانت كل هذه الاصوات تدورفي قاعة المحكمة ، تصطدم بالجدران و تعود فتنقض علي بلا هوادة كنت – خارج كل شيء – اجمع الدلائل الصغيره التي جاء بها الشهود جميعا و اجد في ربطها قصة مثيره قد يحسن الادعاء استعمالها ضدي اذا ما صاغها باحكام .

و لكن هذه الحقيقة كنت اعرفها منذ البدء.

بل كنت احس انني لو كنت مكانه لما ترددت لحظة في صياغة قصة جريمة مثيرة قائمة على كل ما هو غير انساني و غير شريف... حافلة بكل ما في هذا العالم من اندفاعات حيوانية ووحشية غير مسؤولة ، و لكنني – فيما بعد – و كما سترون – فوجئت بما هو اكثر من هذا ، فقد استطاع الادعاء ان يروي قصة تكاد تكون حقيقية تماما!

و صمتت القاعة فجاه، و اتجه القاضي الي ، قافزا فوق التقاليد و العرف ، ربما لشعوره بان صمتي – ايضا هو قفز فوق التقاليد و العرف ...

كان في موقف لا يحسد عليه على الاطلاق ، و قد اجتهد اجتهادا صائبا كما يبدو ، فقرر ان يبدا بنفسه توجيه الاسئلة الي ، غير عابئ بصمتي ، لمجرد ان يكون ،في هذا التصرف ، قد ادى واجبه و اراح ضميره .

لقد سالني عن اسمي و ترك فقرة صمت صغيره متوقعا تماما ان لا اجيب، و لكنه عاد فسالني عن عمري و كانني اجبت عن سؤاله الاول ،و ترك فقرة صامتة ، و سال عن مهنتي و محل اقامتي ، و كنا نبدو و نحن ننظر الى بعضنا مضحكين للغاية ، كمنظر مبالغ فيه في قصة وهمية.

و خلع نظارتيه و وضعهما امامه و شبك كفيه ثم استعرض الحضور و المحامين و الادعاء كانه يستشيرهم في حل ، و عاد فنظر الي مباشره فبدا اكثر صرامة و حسما ، و قال بصوت هادئ :

- ان صمتك – كما لا شك تعلم – لن يوقف العدالة عن مواصلة مهمتها ، وانت تعرف ان ليس في النية تعمد ظلمك و لكن صمتك قد يؤدي الى ظلمك من حيث لا ندري.

و انتظر هنيهة ثم اكمل :

- لقد استمعت الى شهادات عدد من الاشخاص ، انا اسف اننا سنضطر الى ممارسة اجراءات خاصة معك في هذه القاعة التي عرف عنها تمسكها الصارم بالقانون و اجراءاته ، و لهذا سمحت لنفسي ان اخاطبك بهذه الصوره و بهذا الاسلوب.. انني اعلن لك ان المحكمة ترغب حقا في الاستماع الى اعتراضاتك على شهادات الاشخاص الذين استمعت اليهم .. و صمت محدقا الي بعناية كانه ينتظر المعجزه و لما يئس عاد فلجا الى تحديد اكثر :

- هل تعتقد ان الشهادات او بعضها كان كذبا ؟

و انتظر وسط صمت جنائزي مطبق ، صوتي الذي لم يسمعه ...

و لكنني في اعماقي اجبت :" كلا .. لقد كانت الشهادات صحيحة ".

و عاد فسال بعد ان ترك فرصة كافية لم يسمع فيها جوابا :

- هل انت الذي قتلت ليلى الحايك ؟ و اجبت في اعماقي : كلا

- هل تشك في احد قام بارتكاب الجريمة ؟

و اجبت لذات نفسي : كلا

هل كنت في بيت السيدة الحايك ليلة الجريمة ؟هل شاهدك البواب تضع شيئا متطاولا في جيب معطفك ؟؟ هل رميت هذا الشيء المتطاول في البحر ؟
قلت في نفسي " زجاجة عطر ايها السادة" و خيل الي انه لو كان صوتي اكثر علوا لانهارت علي في كل اطراف الدنيا قهقهات السخرية '.. و لكنها زجاجة عطر ايها السادة!
نعم ، قلت في نفسي ، زرت ليلى الحايك ، نعم هذه علبة سجائري .. نعم رآني البواب بعد الدوام البس قفازي و اضع شيئا متطاولا في جيب معطفي ، نعم ، حاولت الصعود الى بيت ليلى مره اخرى . نعم طالبت بثلثي الارث للوريث الارجنتيني ... نعم ... نعم ...نعم ...
و لكن الصمت كان كل شيء..
و سمعت القاضي يقول : هل ترغب في ان تقول الحق كل الحق و لا شيء غير الحق ؟ - و اجبت في اعماقي : من الذي يعر ف الحق كل الحق و لا شيء غير الحق؟ انا نفسي لا اعرف حتى حصتي من الحق ، فكيف استطيع ان اعرفه كله؟
و نفذ صبر القاضي فجاة، - رغم انه كان منذ البدء يتوقع ذلك – و اجتاحت الحضور موجة من الهمهمة ، و نظرت الى زوجتي فاذا بعينيها تلمعان بالدمع الصامت ، و صاح صوت من الصفوف : مجرم . فوجد القاضي في ذلك الصوت فرصة ليعبر عن نفاذ صبره . فطلب من الرجل الذي اطلق الهتاف ان يخرج من القاعة ، و نظرت اليه رجلا صغيرا مسنا في المقاعد اللفية يمضي الى الخارج بهدوء و كان قوه ما ارسلته ليقول ذلك و يخرج.
و وقف القاضي و اعلن رفع الجلسة، الا انه طلب مني ان افكر اكثر في الامر ...
و مر المدعي العام قرب القفص فمال علي و همس : ستذهب الى المشنقة يا استاذ صالح ، صامتا ام صائحا
و في الجلسة التاليه جاء المدعي العام و بسط القصة من اولها فدفع القضية – التي كانت حتي تلك اللحظة مسربلة بالغموض – تحت ضوء كاشف
و في الحقيقة لو وضعت نفسي خارج الامر كله – فانه فعل ذلك ببراعة ، و كانت الاستنتاجات كلها مربوطة بدقة في الدلائل ... لم يغامر كثيرا ، فقد كان يدرك حساسية الموقف تماما ، و استطاع استخدام هذه الحساسية في سبيل وضع قصة اقل تطرفا مما لو كانت القضية عادية
انني اتساءل ماذا تراه يشعر لو انه اكتشف فجاه ان الدلائل التي استخدمها لبناء قصته هي في الاساس دلائل قصه اخرى مغايره تماما ، هل تراه يترك مهنته؟ انني استبعد ذلك تماما لانه بدا لي و كانه يؤمن في اعماقه ان الدلائل و الاثباتات هي مواد خام من حقه ان يعجنها و يصنع منها الهيكل الذي يريد.
ان كون الدلائل و الاثباتات و القرائن حقائق قائمة بذاتها ، لا تحتمل وجهين الا اذا غامرنا بذلك مغامره غير مامونه فكره بعيده جدا عن مهمته و مهنته
و على اي حال دعونا نلقي نظره على الهيكل الذي بناه الاتهام من المواد الخام التي جمعها بعناية ليخرج منها بقصه للجريمة
انني ، اضع في قلب هذه الاوراق كلها ، نسخة عن مرافعة الاتهام كي تكتمل الصوره امامكم جميعا ، و سوف اشطب المقاطع المتعلقة بالقانون و مواده من تلك المرافعة ، كي تصبح الموازنه عادلة ، و على اي حال فانتم تعرفون تلك المواد .و لا داعي لتكرارها
((طبق الاصل))

((لقد شاهدنا كثيرا في هذه القاعة ، محاولات لتجنب حكم العدالة ، قبل اسبوعين فقط قام شخص تعرفونه جميعا بادعاء الجنون كي يهرب نفسه من جريمة بشعة ارتكبها ضد اقرب الناس الى الانسان – ضد الام .
هناك متهمون لا يحصيهم العد ادعوا الجنون ، كذبوا ، اصيبوا بالصرع ، افتعلوا المرض ، مثلوا محاولة الانتحار ، و لكنهم جميعا ما لبثوا ان واجهوا العدالة التي اعتقدوا ان بوسعهم الهروب منها .
لو سمحتم لي فاني ساقف امام هذه الظاهرة قليلا : لماذا يدعي المتهم الجنون ، او يفتعل الصرع ، او يقوم باية محاولة من هذا النوع حين يقف امام العدالة وجها لوجه ؟
ان الجواب المعروف بسيط جدا : فالمتهم يحاول الهروب من العقاب بصوره يائسة و لكنني اعتقد ان الامر هو ايضا اكثر من ذلك، انه اعتراف علني بارتكاب الجريمة ، فليس ثمة مبرر لاي من تلك التصرفات المفتعلة لو كان المتهم امام ضميره على الاقل متاكدا من نظافة يديه .

لقد كنت دائما اعتقد ان المتهم الذي يواجه المحكمة بشجاعة هو اقرب الى ان يكون بريئا من اولئك الذين يحاولون ، في سبيل الهروب من عمل ارتكبوه ، ان يظهروا للناس انهم يفقدون اهم ما يفتخر به الانسان ، العقل .
لماذا يضحي الانسان بسمعته العقلية الا اذا كان بذلك يحاول الدفاع عن شيء اهم ؟ و كيف يمكن ان يدافع اذا لم يكن عاقلا ، اننا بذلك ننتهي الى معادلة بديهية : انه يبرر بالجنون جريمه لا يقبلها العقل ، اي انه يعترف بها .
نحن الان نواجه حالة اخرى ،تختلف شكلا ، و لكنها تنتسب بالاصل الى مجموعة الظواهر التي عددتها ، لماذا يصمت المتهم امام الاتهام ، لماذا يتخلى عن حق الانسان الاول في الدفاع عن نفسه الا اذا كان شاعرا انه ليس ثمه ما يقال امام واحده من ابشع الجرائم ،؟
انه يحاول بذلك ان يحرج القضاء ، و يضع العداله في مازق ..
و لكنني اعترف لكم انني شديد الحيرة امام عمل من هذا النوع يقوم به رجلا كان متضلعا بالقانون .
ربما كان يعتقد ان الدلائل ستكون اقل ، و لو كان هذا الاعتقاد صحيحا اذن لوضعنا فعلا في مازق ، و لكن الجريمه كاملة ، ايها الساده، لم تكن يوما حقيقة يمكن ممارستها .
ان تفسيري الوحيد هو ان المتهم ، الذي سمعتم ها هنا شهادات لا تحصى بحسن سلوكه و يقظة ضميره ، قد شعرت انه قام في لحظة حمقاء بجريمة بشعة، و انه يعترف بها بالطريقة القخوره التي يعتقد انها تليق برجل شهير مثله ، ان كثيرا من الرجال الشرفاء يعترفون ، احيانا ، باخطائهم علنا و لكنهم يعترفون بها دوما بينهم وبين انفسهم ، انني لا استطيع ان ارى في صمت المتهم الا اعترافا شريفا لنفسه ، و لكن العدالة ايضا تطالب بحصتها ، و اذا كان هو قد اختار الصمت ، فلماذا لا تتولى العدالة الكلام؟
ما الذي حدث ؟ اذا كان لا بد لنا ان نروي القصة كلها على ضوء الوثائق و كلام الشهود و جمع الواحد و الواحد ؟
السيد سعيد الحايك رجل اعمال ثري ، يعيش حياه سعيده مع زوجتة رائعة الجمال من عائلة عصامية مات اخر رجالها في اول يوم بدات فيها القصة التعسة ، و اورث ابنته الوحيدة ثروه طائلة
و حين كان الوالد الشيخ على اخر رمق استطاع المتهم ان يعرف القصة باكملها ، و حتى قبل ان يموت الشيخ كان الحديث عن ثروته يملا المدينه كما تذكرون ، و لا شك ان المتهم فكر في الامر مليا ، و لدينا ما يثبت انه قام باول اتصال مع شاب ارجنتيني افاك قبل اسبوعين من وفاه الاب ، و علينا ان نفترض بالمتهم ادراكه للقانون و معرفته بخطر مغامره من هذا النوع ، و هذا هو الذي يفسر الاتصال الغامض ، الذي حدث بالشاب الارجنتيني بواسطة رساله مقصوصه من كلمات الصحف مغفلة التوقيع تلفت نظره الى قضيه ارث و هو اثبات تكرس فيما بعد برسالة موقعة من المتهم للشاب ، بعد انتهاء الاتصالات الاوليه ، موجوده في ملف القضيه و فيها كلمه واضحه حول اتصالات سابقة ،
لقد تسلم السيد سعيد الحايك رسالة مماثلة لتلك التي تسلمها الشاب الارجنتيني ، يجب ان نلاحظ ايها الساده ان هذه المدينه كانت مصدر الرسالتين و لم يكن المصدر من الارجنتين او انه بلدة اخرى في العالم ، الرسالتان صدرتا من هنا ، اي ان الذي كتبهما – المجرم الاول - من هنا .
لماذا ارسل المتهم رسالتين ، واحده لكل طرف ، لدعوى لم تكن قد ولدت بعد ، هذا سؤال مهم جدا و معقد ايضا ، و لكنه اساسي .>>
لقد كانت الرسالتان محاولة اولى لخلق جو للقضيه ، لم يكن المتهم يعتقد انه سيتعرف عن طريق المصادفة بعائله الحايك بعد ايام من ارساله للرسالتين ، و يبدو ان ارساله رساله الى عائله الحايك كانت مقدمه لا بد منها لاقناع الشاب الارجنتيني بجديه المسالة – سنلاحظ هنا جملة ذات ايحاء كبير وردت في الرسالة التي ارسلت الى الوريث المزعوم ، تقول تلك الجملة : سننتظر ردود فعلها ، لا تتحرك قبل اتصال اخر .
فما الذي كان يتوقعه المتهم من عائلة الحايك ؟ بكل بساطة لم يكن يتوقع شيئا ، فعائلة الحايك كانت متاكده من زيف الوريث ، و كان المتهم يعرف هذه الحقيقة تماما و كل الذي اراده هو وضع الوريث المزعوم في جو القضيه تمهيدا لاتصال اخر معه يحدث بعد وفاة الاب ، الذي كان يعاني انذاك من غيبوبة عميقة متصلة استحالت معه محاولة تسجيل رايه في هذه القضيه ، على الرغم من المحاولة التي بذلها سعيد الحايك .
ما لم يتوقعه المتهم ان يتعرف الى عائلة الحايك قبل بدء القضيه ،و لكن المصادفات تدخل هنا ، فاذا بسعيد الحايك يطلعه على ما اعتقد انه لا يعرفه ، و قد ذكر السيد الحايك في شهاداته انه هو الذي طالب المتهم بتولى القضيه عن الخصم ، لانه كان يثق بما اعتقد انه نزاهته ، و حسب ان محاميا كبيرا مثله ، له سمعة مرموقة ، لن يلعب لعبة التزوير و المساومة و الرشوه .

انتم تعرفون ايما السادة ان قضية مثل قضية الارث هذه تكون عادة مجالا سهلا للتزوير، بوسع محام لا يحترم مهنته ان يستجلب عشرين شاهدا بالرشوة يقسمون ان المرحوم قال لهم قبل عشرين سنة ان له ابنا غير شرعي في الارجنتين ، ونحن نفهم خشية سعيد الحايك من نهاية مثل هذه ، ونفهم لماذا حرص على ان يدفع المتهم لتسلم قضية الخصم ظانا عن حسن نية وطيبة قلب انه سيضع القضية في ايد امينة .
وقد وجد المتهم هذه المناسبة فرصة نادرة لاكمال خطته ، ولو لم تحدث لكان على اي حال سيتولى قضية الوريث الذي كان ينتظر "اتصالا آخر" كما وعدته الرسالة المغفلة ا.لتي توقعها. الآن سنحت للمتهم فرصة ان يبدوشريفا حتى امام الخصم الامر الذي يسهل عليه تنفيذ مهمته ، وقد اتصل _كما كان متوقعا _ بالشاب الارجنتيي و ذكرفي رسالته كلمة لا يعرف سعيد الحايك معناها، ولكننا نعرف هذا المعنى الأن _ كلمة تقول " بناء على اتصالات سابقة " .
لقد قدم المتهم القضية بسرعة كبيرة ، انني اتساءل امام المحكمة ان كانت كل الاوراق التي قدمها بعد وفاة والد ليلى قد جمعت بهذه السرعة بمجرد المصادفة . . لدينا قناعة بان هذه الاورأق كانت معدة منذ زمن بعيد
لقد وصلت اوراتى ذات اهمية كبرى الى المتهم، من اين ؟ انه لا يجيب على السؤ ال ، سعيد الحايك يقول ان المتهم ذكر امامه مرة انه تلقى تلك الاوراق بالبريد المغفل . . يجب ان نكون اغبياء ، ايها السادة ، لنصدق هذا الادعاء ، الشاب الارجنتيني لا يعرف شيئا عن هذه الاوراق . . . اليس ذلك برهانا عل ان هذه الاوراق المعدة كانت في حوزة المتهم منذ زمن بعيد ، وانه ابرزها في الوقت المناسب ؟
ونحن الآن نتساءل عما اذا كان لقأء المتهم بسعيد الحايك لاول مرة هو مصادفة حقا . . انا آسف انني لا استطع اثبات ذلك بالبراهين ، ولكن ساحتفظ لنفسي بالشك في هذه المصادفة الغريبة . .
هل كان المتهم يريد التعرف الى عائلة الحايك ؟ هل كان تعرفه بهم مصادفة ام خطة وهو الذي لا بد ان يكون على علم بصداقة قديمة بين زوجته وزوجة سعيد الحايك ؟
لماذا اعتقد انه كان يريد التعرف بعائلة الحايك ؟ ساسمح لنفسي ان الجأ ال افتراض ، بالرغم من اني درست امامكم ها هنا الاحتمال الآخر، الاحتمال الذي يقول بان تعرفه بآل الحايك كان مصادفة محضة . . لقد كان يريد التعرف بعائلة الحايك ليرتب وضعا يستطيع بموجبه ان يلعب دور المساوم وراء ستار من الصداقة ألشخصية . و سنرى ان ما حدث فيما بعد يجبرنا على عدم اسقاط هذا الاحتمال نهائياَ _ لقد جرت المساومة كلها وراء ذلك الستار من العلاقة الشخصية . . هذا امر سترونه بانفسكم الآن .
الآن . ما هي قصة ذلك الشاب الارجنتيي الذي بادر الى رفع دعوى يطالب بحقه في ارث الرجل الذي مات مدعيا انه ابنه ؟
حين ذهب محجوب السيد،.الد المغدورة ليلى الى الارجنتين قبل نصف قرن تقريبا كان مجرد فلاح مغامر لا يعرف احدا _وقد وجد في بيت سيدة ارجنتينية في مقتبل العمر، ارملة ووحيدة ، ملجأ امضى فيه سنواته الاولى الصعبة _ وقد اشرفت تلك السيدة الفقيرة النبيلة على الشاب الشرقي الحائر الى درجة لم ينسها محجوب رغم كل شيء،طوال عمره .
ان ما اقوله هنا ايها السادة مدعوم بشهادات عديدة منتقاة من شهود يعرفون محجوب في المغترب . لقد استطاع الشاب الطموح آنذاك في قصة مشرفة حقا وصعبة اكثر مما نتصور ان يشق طريقه الصامحد : فترك بيت الارملة الشابة واضحى يعيش في مجتمعات محتلفة تماما لم تنسه على بذخها ونبلها واصالة محتدها المرأة التي امسكت بيده حين كان وحيدا.
كان يرسل لها كثيرا من الفلاحين الذين يطلبون مساعدته. ينزلون في بيتها المتواضح الى ان تشتد اعوادهم وكان هو الذي يدفع الاجر.
لقد مرت اعوام كثيرة قبل ان تأتيه الارملة ذات يوم و تعترف له انها حامل ، وان والد الجنين هو شاب مشرقي من اولائك الذين ارسلهم اليها ، وعدها بالزواج ثم اختفى عن الانظار...
هذا شيء حدث قبل ثلاثين سنة _ ان الشهود الذين ادلوا بشهادات حول تلك الفترة من الزمن يقولون ان محجوب كان قليلا ما يرى الارملة، وان علاقته بها حين اضحت حاملا، كان عمرها 15 سنة على الاقل _ لقد كان رجلا شهما فلم يشأ ان يترك المرأة الى مصيرها التعس ، فوعدها بمساعدة لمدى الحياة ، وكتب لها فيما بعد رسالة موجودة في ملف القضية ، يقول لها فيها حرفيا انه وان كان الولد ليس ابنه فانه يعتبره ابن بلاده على الاقل .

من اين جاءت هذه الرسالة . . . هذه الوثيقة التي وجدت بين كتب الضحية ؟ دعونا ننتبه الآن الى هذه النقطة : لقد كانت هذه الرسالة مع الضحية ، وقال زوج الضحية في شهادته ان زوجته قالت له قبل مصرعها بايام ، انها حصلت على وثيقة مهمة - هذه هي الوثيقة ، بلا شك ، ايها السادة .
لقد تولى المتهم الدفاع عن ارث الابن المزعوم مع معرفته الكاملة بحقيقة القصة . ان براعته كمحام وسمعته اللامعة وخبرته التي نعرفها جيدا ، ان كل ذلك كان جديرا بجعله على بينة من نسبة الصحة في قضية من ذلك النوع .
هوالذي اجرى الاتصال الاول ، وهوالذي كان يفاوض السيدة ليلى وزوجها . وهوالذي كان يضع شروطا لم يسمع عنها الابن المزعوم ولم يطلبها يوما .
ان التحقيقات القليلة التي جرت مع المتهم ، قبل ان يكتشف انه محاصر ويلتزم الصمت ، تثبت ذلك بما لا يقبل الجدل : لقد اعطى الضحية كلمة شرف بأن يكون قانونيا ثم حين جاءت بادرة مصالحة طالب « باسم الصبي المزعوم ، بثلث الارث . . . فيما اعترف ايضا بانه كان قليل الامل بنجاحه بالقضية اساسا .
كان يمارس ضغطا على السيدة الطيبة ، وكان الزوج الذي اراد ان ينتهي من كل شيء قد عرض عليه رشوة ، صحيح انه رفضها ولكن ليس باسم الامانة كما قال ، بل باسم المساومة
قبل الجريمة بيوم واحد شعر المتهم ، كما جاء ،اعترافه ، بان الضحية التي كانت تصرعلى الاستمراربقضية الارث حتى النهاية بدأت تميل الى انهائها بتسوية ، ولكن لم يخطر على باله اطلاقا ان السيدة النبيلة كانت تريد ان تعطي الارث كله الى مشروع خيري .
لقد اشار السيد سعيد في آخر لقاء مع المتهم قبل الجريمة الى ان ليلى واثقة من النجاح ،ولا توجد تفاصيل كثير ة عن ذلك اللقاء الهام ، ولكن لدينا ما يقنع بان المتهم احس بان التيار بدأ يسيرعكس ما كان يرجو فقد تحدثت الضحية امامه عن وثيقة حاسمة.
عند الظهيرة اتصل بالضحية ، والذي لا شك فيه ان حافزه الى الاتصال كان محاولة معرفة الملزيد عن الموقف ، ويشيرما حدث فيما بعد الى ان الضحية قد اشعرته باهمية الوثيقة الحاسمة مرة اخرى واثقة ما تزال بكلمة الشرف التي اعطاها لها.
وفي السادسة مساء كان المتهم قد توصل الى معرفة الموقف برمته ، كان يعرف بأن سعيد الحايك قد ذهب الى الارجنتين ليجري اتصالأ مباشرآ مع الخصم وكان يعرف بأن الخصم سيرضى الخروج من اللعبة بمبلغ يسير، وفي الناحية المقابلة كانت هناك الوثيقة التي ستحسم الموضوع حتى لو لم يحدث الاتفاق ، فقرر ان يتحرك بسرعة .
السؤال الآن مزدوج : لماذا ذهب سعيد الحايك لمفاوفة الصبي في حين أنه كان يعرف بوجود الوثيقة لدى زوجته ؟ وبماذا كان المتهم يطمع من زيارة ليلى الحايك ذلك المساء؟
لقد ذهب سعيد الى الخصم بنفسه لأن ليلى كانت لا ترى مانعاً من أن يأخذ الصبي مبلغآ من المال لذكرى والدها الذي كان يهتم بأمه وبه طوال عمره ، وقد قالت لسعيد ليلتها ان حصة الصبي هي حق .
ثم ان سعيد قال في شهادته انه لم يكن يعرف الوثيقة ، وقد كان لا يثق بتقديرات زوجته لأهميتها، وأنه حتى لوكانت حاسمة فان الوقت الذي سيضيع في متابعة القضية هومحض خسارة للجميع . . . الاهم من ذلك كله ايها السادة اذ ذهابه دون الاتصال بالمتهم بالرغم من انه هو الذي كلفه تسلم القضية دليل لا يدحض عل ان سعيد الحايك نفسه كان يشك في حقيقة نيات المتهم. .
اننا مضطرون لتصديق هذا الاجتهاد لان المبلغ كله ايها السادة ، قد دفع تبرعا لعمل خيري ، ولان رحلة سعيد الحايك قد تكللت _ رغم مناورات المتهم _ بالنجاح .
ماذا كان المتهم يريد من الضحية ؟
كان يريد ان يكمل المساومة التي بدأت بقصة الثلثين ،. هذا هو افضل احتمال لمصلحته وكان _ اذا شئنا ان نمضي ال ابعد _ يريد اخفاء الوثيقة التي ستفقا كل شيء، حتى لو ادى الامر الى قتل ليلى ليخلو الجو للوارث الارجنتيي المزعوم خصوصا اذا اختفت الوثيقة.
لقد غادر مكتبه في السادسة، في السادسة وخمس دقائق اغلقت سكرتيرته المكتب ، بين السادسة والسادسة والنصف كان قد وصل ال باب بيت السيد سعيد الحايك . انه يعرف بان المفتاح موجود فوق حافة
الباب ذلك امر اعترفت به زوجته وحين مد يده لاخذه لم يجده ، فعرف ان الضحية موجودة في الداخل ولكنه نسي ان بصمات اصابعه بقيت فوق غبارحافة الباب ، فقدكان مشغولا بقرارآخر هوالتخلص من ليلى والحصول على الوثيقة قبل ان يفوت الاوان .

عاد الى مكتبه ، وفاجاه البواب الذي استغرب وجود اضاءة في غير موعدها، يضع شيئا يشبه السكين في جيب معطفه الداخلي ويلبس قفازاته .
عاد المتهم ال منزل الضحية فوضع سيارته بعيدا، واقتنص كما في المرة الاول ، غياب البواب وصعد. ولا شك ان السيدة الضحية فوجئت به ولكنها بالطبع سمحت له بالدخول اعتمادا على سمعته وصداقتها لزوجته .
ويبدو ان المساومة لم تفلح فقد كانت الضحية الآن في موقف جيد وحين هددا اتجهت الى الهاتف ولكنه لحق بها قبل ان تصله وطعنها في خاصرتها طعنة عكمة واحدة لا يستطع ان يوجهها الى المقتل بهذه الصورة المتقنة الا جراح او خبير، وهو خبير في هذه الشؤون ، وقد سمعنا كثيرا من مرافعاته التي تحدث فيها مطولا عن معنى الطعنة وما تظهره من شخصية الطاعن .
وقد سقطت الضحية بين مكان الهاتف والمقعد المفضل لديما في غرفة الجلوس _ اي انها كانت في ذلك المقعد، وهي لا تجلس هناك الا اذا كانت تستقبل رجلاً ما .
لقد فتش بعد ذلك على الوثيقة ولكنه لم يجدها، وحين قطع الامل نهائيا زاد في التمويه فأخذ بعض المجوهرات كيفما اتفق واغلق الباب بهد وء كي لا يسمع الجيران ولكن حين كان يفعل ذلك اسقط علبة سجائره .
ولم يكتشف انه اضاع علبته الا حين صار قرب سيارته فعاد لا خذها، ولكن حين تلاقى امام المصعد مع بعض سكان البناية خشي ان يفتضح امره فعاذ ادراجه ، وربما عاد لانه حسب ان العلبة قد سقطت في الداخل وصار من المستحيل عليه ان يفتح الباب .
وقاد سيارته الى الشاطىء حيث تخلص من أداة الجريمة والمجوهرات وكان من الممكن اذ لا يلفت هذا الحادث نظر احد لولم يتجه الى دكان هناك ليشتري علبة لفافات جديدة .
ان الوثائق والشهادات التي تدعم هذا المنطق موجودة في الملف : لم اترك شيئا للاستنتاج ولكني ربطت بين هذا العدد الكبير من الامور المثبتة وحاولت ان افسرها. ان الضحية بلا اعداء، وليس ثمة من هو مهتم بقتلها او له مصلحة في ذلك ، ولكن مقتلها سيجعل من ذلك الافاك الذي اكتشفه المتهم الوارث الوحيد لثروة كبيرة ، وبالتالي سيجعل حصة المتهم من الارث اكبربناء على اتفاق مسجل .
وكان المتهم يعرف بان ذلك المدعي المجهول سيرضى باقل من العشر، وقد اثبت الاتصال الاخيرالذي اجراه سعيد الحايك بالصبي هذه الحقيقة ولذلك كان مضطرا للاسراع في تصرفه ، كي يخفي الوثيقة .
ان الصمت قد يخفي جانبا من الحقيقة ، ولكن في هذه القضية كانت العين الساهرة للعدالة اكثر من ناطقة .
لقد جمع ذلك كله ببراعة تستحق التقدير في الواقع ، ولوكنت مكانه لما وجدت قصة افضل واكثر منطقية ، ولما وجدت _ مستعينا بكل قوانين ألعالم _ عقوبة ارأف من الاعدام ، الذي طلبه لي بصوت واثق ورزين

***

لقد سرت ههمة مستثارة في القاعة ، وحين نظرت ال وجوه الحاضرين لمست فيها اقتناعا كاملا ازاح من تقاطيعها الحيرة التي كنت اراها في الجلسات السابقة..
وفجأة _ وراء الصمت المطبق _ نبع صوت من الصفوف الخلفية وصاح : "مجرم" .
ثم قام الرجل العجوز الضئيل واخذ يسير نحو الباب دون ان ينظر
واندفعت زوجتي نحو القفص ودخلت اصابعها في شباكه ، واخذت تصيح في نوبة من الهستيريا: تكلم يا صالح . . تكلم ستموت .
دارت الجملة في رأسي واخذ بدني يرتجف ، ونظرت فجأة الى المنصة فجاءت عينا القاضي تنظران مباشرة في عيني ، وهز رأسه هزة خفيفة، وصاح صوت آخر من يين الحضور:
- تكلم ياصالح، تكلم...
وعادت زوجتي تصيح : ستموت يا صالح ، تكلم ...
و احسست ان جسدي اخذ ينضح بالعرق و بدات شفتاي تتحركان كانهما شقا فخ من القصب يهتز تحت ضربات جناحي عصفور مغلوب على امره.
وصمتت القاعة- دفعة واحدة- صمتا مطبقا.
.كان الكلام قد وصل الى اسناني ، وسط الصمت المطبق الذي ران على الجميع ، حين جاءت ليلى الحايك فجأة ال راسي .
وعرفت انني سأسقط : لقد اجتاحتني موجة من الحمى فتمسكت بالحديد وما لبث الحارس ان دفع تحتي كرسيا فجلست .

ورأيت زوجتي تنظر الي بشفقة ووراء كتفيها كان وجه سعيد الحايك قلقا وكانت الدموع تملأ عينيه .
ولكن ليلى الحايك وصلت .
وعرفت اني لن اتكلم . . عرفت ان حركة شفتي كانت ارتجافا بائسا ولم تكن قرارا بالكلام . . لقد كان قرار الصمت في اعماقي اقوى من ان يحطمه الخوف لانه كان وليد شيء آخر: لوكان وليد الشجاعة لحطمه الخوف ولكنه كان وليد الاقتناع . . كلا، وليد ما هو اكثر عمقا من الاقتناع ، وليد الشعور بالعبث .
الم اقل لكم ان الفخ المنصوب في سهوب الجليد لصيد الضبع قد اطبق اسنانه الفولاذية على قوائم كلب طريد لقد جاءت ليلى الحايك فملأت رأسى .
وفجأة اختفت المحكمة ، والرعب ، والارتعاد ، وزوجتي . .
واستلقت ليلى الحايك كسولة ومستثارة عل الكرسي الطويل في غرفة الجلوس وتركتني استلقي عل جانبها .
وقلت - يومها - كأنما لنفسي :
- غرمعقول .
كانت عائمة فوق امواج المغامرة المثيرة،و سالت بصوتها الهادء نصف النائم الواثق والعميق:
- ما هو غير المعقول؟
- انت .
كانت امرأة . امرأة . كانت كل النساء ايها السادة. . وانا حزين يا ديما العزيزة ، اذا ما قلت ذلك ولكن من الذي جعلها رائعة غير انت ، كانت رائعة لانها حطمت العادة ، لانها اعادتك...
اتذكرين تلك الليلة التي اتيت فيها اليك متعبا ومتأخرا احمل كيسا من الكعك ؟ تلك الليلة هي بالذات كانت ليلتي مع ليلى قد جئت يومها مباشرة من بيتها. . اتذكرين ؟
قلت لي يومها حين قبلتك وانت تحضرين العشاء في المطبخ : انت تلتهب . . ما الذى حدث ؟
الذي حدث انني كنت اريدك اكثر من اي وقت مضى . .. و انت نفسك قلت لي ليلتها< بعد ان استلقيت واخذت تلهثين ال جانبي كنت مرعبا ورائعا، ما الذي تعشيناه ؟ سأطبخ لك كل ليلة صحنا من السجق الحار ان كان يلهبك بهذه الطريقة.
لا. لم يكن السجق الحار يا ديما . . لم يكن السجق . . كانت ليلى.
كانت ليلى . . التي جاءت الآن ال قفص الاتهام ودخلت في ثيابي واطبقت شفتيها على صمتي...
كانت ليل التي قتلت... و التي تحولت في رأسي - لانها ماتت - الى عشيقة حقيقة...
لقد انتظر القاضي فترة طويلة ان اتكلم .
كان يعتقد ان ارتعادي وارتجافي كانا مقدمة لتحطيم الصمت ولم يعرف -كيف ؟ - اني كنت مع ليلى ومعك في حظة خاطفة خارج المعقول .
ولكنه عاد فانتفض غاضبا . وقال شيئا لم افهمه - ذلك اني كنت اخرج لتوي من سريريكما - ثم صاح بي ان انظر اليه فنظر ت . وسأل بغضب :
- هل فهمت كل شيء في المرافعة؟
و صمت فيما قلت بيني و بين نفسي، " نعم "
_ هل لدي اي اعتراض؟ اية ملاحظة ´؟ اي نقض ؟
وترك لي فرصة ان اجيب ولكني صمت .
_ لقد طلب لك الاعدام فهل تراني بحاجة لاشرح لك معنى ذلك ؟
وظل الصمت مطبقا . . فيما عاد بعد لحظة يصيح :
_ لقد روى الاتهام قصة الجريمة ، وسمعتها بحذافيرها . . هل استطيع للمرة الاخيرة ان اسألك اعتراضك ؟
وخيم الصمت عميقا وحاسما هذه المرة.
استعرضت مرة اخرى قصة الاتهام ولكني لم اجد _ مرة اخرى _ ما يقال . الآن فقط ، استطيع ان اقول لكم _ خارج منطق القانون وخارج مسطرة القضاء _ انها قصة غير حقيقية . . ليس من حيث التفاصيل وواقعيتها فقط ولكن من حيث "قاعدة البحث " ايضا.
ان موجز القصة اذن هو ان "شيئا ما" قد رتب لي جريمة لم ارتكبها، جريمة قمت بكل شيء فيها ما عدا مسألة الطعنة التي هي في الواقع جزء يسيرجدا من مجموع الجريمة، وحتى هذه المسألة التي ربما تكوذ قد استغرقت نصف دقيقة عل الاكثر لا استطع ان اثت بأني لم اقم بها ...

فما هي الحقيقة ايها السادة ؟ هل هي مجموعة براهين ؟ هل هي مسألة حسابية ؟ ان القانون لا يعترف بالنية ، الا حين يفترضها هو، وهولا يفترضها الا على ضوء سلسلة من البراهين ، ولكن الى اي حد توجد علاقة بين البراهين والنية ؟ بل الى اي حد يمكن ان تكون البراهين حقيقية...
لا شك اني كنت سأبدومضحكا تماما لوحاولت ان اقول هذا في المحاكمة . انا الذي كنت دائما امثل دور الرجل الغاضب حين يحاول رجل ما في حضرة العدالة ان يكون ذاتيا او رومانطيقيا او بعيدا خطوة>>
واحدة عن القانون فهل ترى هذا الكلام يعني شيئا آخر حين
تسمعونه انتم انفسكم ، من فم رجل ميت ؟
لنحاول ان ننظر ال مسألة العدالة بدءآ من طوفها الاخير، وليس من طرفها الاول كما جرت العادة . سأوضح ما اقصد . لقد جرت العادة ان يكون حكمها هو نهاية القصة . فلنحاول ان ننظر اليها حين نفترض ان ذلك الحكم سيكون مجرد البداية . نحن نقول عادة ان جويمة ما تستحق حكما معينا ، ونحل المسألة على هذه الصورة ، فماذا يحدث لو سألنا عما اذا كان ذلك الحكم يوازن الجريمة ؟
ان الجريمة هي سلوك ذاتي ، واذا كانت العدالة تتميز، كما نقول ،بأنها غير ذاتية فلماذا تلجأ الى الانتقام الذي هو قيمة ذاتة .
هل العدالة اجراء انتقامي؟ نحن نقول لا . ولكن اذا قتلنا رجلا باسم العدالة لانه قتل رجلا باسم السلوك الشخصي فما الذي نكون قد فعلناه غير الانتقام ، والانتقام بمقاييس شخصية ايضا ان الشخص يرتكب الجريمة ، غالب الاحيان ، بتخطيط شخصي،في احيان كثيرة يرتكبها دون تخطيط ، في كلتا الحالتين نحن ، باسم العدالة ، نخطط وسيلة الانتقام ، ولكن على مقاييس ذاتية وليس على مقاييس اجتماعية . سوف يبدو وكأني اعتبر نفسي قاتلا وانصرف الى منا قشة الحكم وعدالته ، والحقيقة اني لا اعتبر نفسي كذلك ، ولكن ما قيمة اعتبارى الشخصي امام ذلك الهيكل الكامل من البراهين المبنية على مصادفات تكاد تكون وقائع مادية منطقية مسلسلة، في قلب ذلك الاله المقدس الذي نسميه القانون ، والذي نجعله بصورة غيرمباشرة ، يمثل آراء ذاتية محضة ؟
لقد شعرت باكتفاء غريب حين استمعت الى مرافعة الاتهام ،وتأكدت اكثر من اي وقت مضى اني كنت في جانب الصواب حين اخترت الصمت ، وعلى العكس فلو اطلقت للسان العنان لاسأت الى عدد كبيرمن الناس الذين حبهم دون ان اقدر على اثبات براءتى . ما الذي سأكسبه من تلويث ليلى ؟ وما الذي سأجنيه من توريط سعيد. ان هذه القوة المجهولة التي رتبت الامر بكليته ، متسترة وراء صمتي ، هي التي يجب ان تتقدم من تلقائها لاثبات براءتي ولوحدث ذلك ، يا الهي لوحدث ذلك ! يا الهي ! سيضحي القانون مهزلة ، وسيثبت لي انا على الاقل _ وهو امر في منتهى الاهمية _ ان الفي سنة من الاجتهاد لم تستطح ان تضبط العنصر البشري في قارورة ..
لقد استمعت بصمت وتأمل الى مرافعة الاتهام ، كان منطقيا، وقداستعمل الحقائق المتوفرة ليصل الى قناعات ليس فيها شيء كثير من التجني، ولم يكن بوسعه الوصول الى شيء آخر حين كان يستعمل المنطق البارد في حل مسألة غير منطقية القانون . ولكن اين هوالقانون الذي يستطيح ان يتعامل مح مسائل لم يحدث ان استطاع الانسان اخضاعها للقانون ؟ انا لا اتكلم عن المصادفة فقط التي وقعت ضحية كسيحة بين يديها،ولكني اتكلم ايضا عن الغضب ، عن الغيرة ، عن الحب ، عن الخيانة ، عن الملل ، عن رغبة رجل يعيش مثل بقية الناس ويخطر على باله ذات يوم ان يكسر طوق العادة ليجعل من حياته شيئا فريدا وحارا وله نكهة ، بمجر ان يفعل يكون قد خطا الى خارج العالم الذي يحكمه قانونكم .
هل يستطيع القانون ان يغضب ؟ ان يغار؟ ان يشعر بمراوة الخيانة ؟ ان يمزقه الملل ؟ ان يفهم منطق الخروج عن العادة ؟ انه لا يستطيع لانه كما نقول ، ليس ذاتيا، فلماذا اذن يحاكم هذه الظواهر من الخارج ، ثم يضع لها احكاما من منطقها؟ هل تفهمون ايها السادة ؟ ان القانون لا يقبل بان يقوم رجل غاضب بارتكاب جريمة ، ولكنه ، كي يعاقبه ، يقتله _ كأنه هوذاته هذا القانون رجل غاضب . لماذا لا يقبل الغضب ولكنه يقبل استعمال ادوات الغضب ؟ لماذا ايها السادة ؟ لماذا لا يقبل المصادفة ولكنه يعتمد عليها في اثبات الواقع ؟ لماذا ، ايما السادة ، يأخذ من المصادفة اثباتا للواقع ولا يأخذ منها ، هي التي تجيء في اعتقاده فوق الواقع او وراءه، عدم منطقيتها؟
وقف المحامي الشائب ، ووجهه يكتسي بمسحة حزن حقيقية واخذ يهز اوراقه امام الناس محتارا اكثر مما هو في الحقيقة ،كان ذلك كله اخلاصا ضروريا لطقوس العدالة ، وكنت اريد حقا ان اعرف كيف سيدامع عني .
كان في موقف صعب ، هذا شيء قدره له الجميع بما فيهم الخصم ، ولكن في حالة مثل حالتي ، على قدر ما علمتي خبرتي ، يمكن لهذا الصمت ان يكون اداة ممتازة في الدفاع اذا احسن استعمالها، وكنت مشوقا لمعرفة الكيفية التي سيستعملها بها .

لقد طلب من المحكمة في البدء :ان تقدر له ظروف القضية ،فهو يواجه من ناحية ادلة علمية ليس بالوسع دحضها ،من حيث انها ظواهر لفعل ما، وهو من ناحية اخرى يواجه ما هو اقسى من ذلك،صمت الرجل المتهم الذي يرفض ان يقول لا او نعم...

كانت القاعة اكثر ازدحاما مما كانت في المرة السابقة ، وبدت ديما اكثر طبيعية ، ربما لانها تعودت مثلي على الظروف الجديدة . وقد شهدتها تتحادث مع الصحفيين فتبدو لي من بعيد محامية اكثر من زوجة ،تتحدث بهدوء وعبر صوت افقدته عمدا رنة العاطفة لتبدو، فيما تحسب ، معقولة .

وفتح المحامي اوراقه ببط ء متعمد فيما خيم صمت ثقيل ، وقد حدق الي وهويرفع الصفحة الاول لفترة طويلة ، كانه يرجوني ،هذه المرة ، ان اتمسك بصمتي ال الابد .

لقد اعلن في نظرته تلك اني خرجت نهائيا من القضية التي تدور حول رأسي ، وان الموضوع كله قد اضحى حوارا طريفا حول دجاجة ما ، ورهانا مسليا لا يمكن ان يستكمل اثارته الا اذا استكملت صمتي ، الى الابد .

لقد تضاءلت الآن ، (او تراني ارتفعت ؟) من شخص الى تجريد،لدى ألاتهام ولدى الدفاع في آن واحد، وكنت سعيدا ان ذلك قد حدث بهذه السرعة بعد ان اعتبرت نفسي، عبر الصمت ، تجريدا لا يمكن للعدالة ان تتعامل معه انني ارفق دفاع المحامي، ايضا. بهذهالاوراق-كي نستكمل الموضوع من كافة جوانبه .

"انتم تحاكمون الآن رجلا صامتا، لم يقل لا، ولكنه ايضا لم يقل نعم ، ومع ذلك ان الدفاع عنه مهمة شاقة . ان اثبات براءته مسألة صعبة ولكن ما هو اصعب هو ادانته .

لماذا يصمت المتهم ؟

لقد كان تفسير الادعاء بانه صمت لانه لا يستطيع ان يقول شيئا امام الادلة ، انه احتمال اقبله بكل احترام شرط ان نقبل الاحتمال الآخر الذي يقول بان الادلة ايضا جاءت صامتة . انها ايها السادة لا تعني شيئا دون ان يقول المتهم كلمته ،اما الشخص الآخر الذي يستطيع ان يقول كلمة مماثلة فقد مات .

لقد وجد موكلي نفسه ، دون تمهيد، في مصيدة من الادلة التي تعني انه القاتل بنفس المقدار الذي تعني فيه انه ليس قاتلا، وامام حيرة من هذا النوع سأسمح لنفسي ان اقول انه اصيب بنوع من الجنون : فهولا يستطع ان يصدق ، وشاهده الوحيد ليس ميتا فقط ولكنه ايضا صديق عزيز ميت ، والمجرم الحقيقي نفذ جريمته بتخطيط شديد الذكاء ليضع انسانا بريئا امامكم على قاب خطوة من الموت ، فما الذي يستطع رجل ان يقوله في هذه الحالة .

لقد رأينا كثيرا من المتهمين الابرياء؟ يعلنون اضرابا عن الطعام حتى الموت ، اي انهم يختارون الموت بانفسهم قبل ان تجبرهم عليه اخطاء العدالة ، ان الصمت هوصراخ من النوع نفسه . اكثر عمقا واكثر لياقة بكرامة الانسان .

الا تستطيعون ايها السادة ان تسمعوا في صمت هذا الرجل صراخ الرجل البريء المغلوب على امره ؟ صراخ الضحية التي وضعها مجرم مجهول في مصيدة دون ان يتيح لها فرصة الدفاع عن نفسه؟ اي برهان على براءة هذا الرجل اكثر قوة من ان يصمت حين تكون حياته نفسها علىحافة السكين.

لو تكلم المتهم فانه لن يفسر شيئا وقد يستطيع ان ينقذ حياته اوبعضها ولكن حين يصمت فقد يخسرحياته ، فلماذا يصمت اذن اذا لم يكن الصمت هو اعمق دفاع انساني عن الحياة ؟

ان مرافعة الادعاء تحتوي على تناقض نظري فاضح : فهويقول ان موكلي ارتكب جريمة عن سابق تخطيط وتعمد و اصرار ، ثم يقول انه صمت لانه يعترف بها،ولكن لوكان هذا صحيحا لكان من المفروض ان ينبري المتهم للدفاع عن مخططاته . لوقال الادعاء ان موكلي ارتكب جريمة مفاجئة ،دون عمد واصرار،لكان بوسعنا ان نفهم بأن صمته هو ند م عميق واعتراف كامل ، لان الجريمة اذن حدثت خارج سيطرته العقلية واحس بفداحتها الآن ، ولكن اذا كانت الجريمة وليدة خطة طويلة الامد فالذي لا شك فيه اذن ان المتهم كان قد وضع في حسبانه.ان يدافع عن نفسه ، واعد للامر عدته .

سأسمح لنفسي ايها السادة ان اقول ان جريمة مخططة طويلة ألامد لا يمكن ان تترك ادلة بهذه الكثرة ، خصوصا اذا كان الرجل الذي قام بها محامياً خبيراً وذكياً. الا اذا وافقنا بان الجريمة قد حدثت في لحظتها،دون تخطيط ودون تعمد واصراروربما للدفاع عن النفس ،ولكن هذا كله غير مثبت ،ان الشيء الثابت هو ان الجريمة مخططة بدقة واحكام ،وهذا تناقض آخر، تناقض بين وجود ادلة عديدة ، وبين ما نعرفه جميعا عن ذكاء موكلي وطول تمرسه بقضايا الجنايات.

ولكن يجب ان لا يخيل لاحد اني اريد ان اقول ان موكلي قد ارتكب الجريمة دون تخيط ودون سابق اصرار، اني -ايها السادة - لست هنا

لاطالب بالسجن المؤبد لموكلي بدلا من الاعدام - اني اطالب له بالبراءة...
لقد قال الادعاء ان اتصالا غير مباشر قد حدث بين موكلي وبين الشاب الارجنتيي قبل وفاة والد الضحية ليلى ، ولكنه ليس من الثابت ان موكلي هوالذي قام بهذا الاتصال - صحيح ان موكلي اعتمد على هذا الاتصال الاولي غير المباشرحين اضحى محامي الشاب الارجنتيي ولكن ذلك لا يثبت ان موكلي هو الذي اجرى الاتصال الاول .
من الذي اجرى ذلك الاتصال الاول مع الشاب الارجتيني ؟ ان هذه المسألة في غاية الاهمية ذلك انها، لو استطاعت العدالة حلها،تدخل الى القضية الرجل المجهول الذي لعب الدور الاساسي كله ،الذي قد يكون ارتكب الجريمة .
ان رجلا مجهولا ما زال خارج نطاق العالة ، ليس ثمة اي اثبات تركه . ولكنه موجود، وليس بوسعنا ان نمضي في هذه القضية الى نهايتها دون ان نعرف من هو .
لنعد الى القصة الاولى من اولها:
كان والد ليلى الحايك على وشك الموت ، مخلفا ثروة طائلة لابنته الوحيدة ، حين تلقى الشاب الارجنتيي كما قال في اعترافاته رسالة مغفلة التوقيع ، مركبة من كلمات مطبوعة مأخوذة من جريدة ما، تفتح عينيه على موضوع الارث.
من الذي ارسل له هذه الرسالة ؟ الادعاء يوحي بان موكلي هوالذي فعل ، ولكن هذه الواقعة ليست مثبتة قانونيا، وقد لعبت عند الادعاء دور المدماك الاساسي الذي ركب عليه قصة الجريمة برمتها. . . لقد علم موكلي بالقضية من رسالة مماثلة وصلت الى السيد الحايك
ليست مهمتي اكتشاف ذلك الرجل ، ولكن القانون يعطيني حق افتراض وجوده ، وسأبني القصة ، في ظروفها التي تعرفونها جيدا، على افتراض وجود ذلك الرجل.
ليس بوسعي ، وليس بوسع الادعاء ايضا، معرفة الطريقة التي تم الاتصال بها بين موكلي والشاب الارجنتيي، ولكن لدينا حقيقة واحدة في هذا المضمارو هي ان موكلي اتصل بالشاب الارجنتيي بعد تعرفه الى عائلة الحايك وليس قبل ذلك.
من اقوال الشهود لدينا اثبات آخر وهو ان سعيد الحايك ، هو الذي طلب من موكلي موعدا وليس العكس ، هذا يعني ان موكلي لم يكن على علم بتلك القضية - بل اكثر من ذلك فقد قال سعيد الحايك انه هو الذي اطلع موكلي على وجود قضية من هذا النوع وانه طلب منه توليها كخصم لانه يثق بشهامته وتقيده بالقانون قبل ان يتولاها محام آخر يد خلها ال عالم من المساومة والضغط وربما التزوير.
كيف عرف سعيد الحايك تفاصيل القصة ؟
لقد اشار سعيد الحايك في التحقيق ال رسالة مماثلة لتلك التي وصلت للشاب الارجنتيي، وقد جعل السيد الحايك موكلي يطلع على تلك الرسالة الغامضة ، كخصمين شريفين ليس لديهما ما يخفيانه.
نحن ايها السادة امام مجرم حقيقي شديد الذكاء، واخشى ان يكون قد ضللنا جميعا، لقد اتصل بالوريث المزعوم واتصل بعائلة الحايك وانتظرمن الاتصالين ان يفرضا محاميا، ليتيسرله ان يلعب لعبته في الوقت المناسب.
لدينا سؤالان الآن ايها السادة : هل كان ذلك الوريث الارجنتيني مزعوما حقا؟ ولماذا اتصل الشخص المجهول بهذه الطريقة بسعيد الحايك وخصمه وادخل المسألة الى القضاء؟ ماهي مصلحته في ذلك ؟
ليس لدى موكلي ، حتى لحظة وقوع الجريمة البشعة . ما يثبت ان اللوريث الارجنتيني هووريث مزور، وبوسع اي منا ان يتصور نفسه في مكان موكلي : قضية ارث معقدة . فيها احتمالات متساوية ولكن فيها ايضا الاغراء الذي يمكن ان يجلبه الانتصار، حصة قانونية من الثروة . .
فما هو المانع من ان يتولى موكلي القضية طالما هي في نطاق القانون ؟
صحيح ان الشاب الارجنتيني لم يستطع ان يثبت نسبه الى والد ليلى،و لكن الصحيح ان ليلى لم تستطع ان تثبت العكس . . ان الوثيقة الوحيدة القادرة ان تحسم الاحتمالين لم تبرز الا بعد مقتل الضحية وكما قال الشهود فان موكلي لم يكن على معرفة بها وبحقيقتها حتى حين اعلمته الضحية بوجودها .
اذن ، من الناحية المنطقية ، ليس لدى موكلي اي مانع من ان يأخذ القضية وعلى العكس فقد اخذها بناء على نصح خصمه ، لان خصمه هذا كان يثق بنزاهة موكلي وحرصه على القانون .
ولكن من اين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة ، والتي لم تكشف الا بعد وقوع الجويمة ؟
انه سؤ ال مهم ايها السادة ، في غاية الاهمية بالرغم من ان كل الشهود لا يعرفون قصتها . . انني اجرؤ على القول بان جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هو اثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول .

وسرت فجأة ضجة في قاعة المحكمة فاخذ القاضي يضرب المنضدة بكفه طالبا الهدوء ، وصاح صوت قريب لم استطع تبين صاحبه :" انت تزيد ألموضوع تعقيدا" .
ولكن المحامي الشائب اخذ يهز اوراقه مستثارا ، طالبا من القاضي ان يهيء له فرصة اكمال مرافعته بهدوء ، وبدت وجوه الحاضرين ، حين نظرت اليه ، مملوءة مرة اخرى بالحيرة التي كانت عليها قبل مرافعة الاتهام.
وكان المدعي العام يهز رأسه ساخرا ولكن بصمت ، وفجأة نظر المحامي الي وكأنه يستشيرتني فالتزمت الصمت . . ولكنه بدا لي في تلك اللحظة اكثر ذكاء ودهاء مما توقعت ، يجيد هو الآخر استعمال المواد الخام ليبن هيكله الخاص دون ان يرتكب مغامرة غير مأمونة العواقب .
واعترف اني انا نفسي لم اكن لافكر بمثل هذا المخرج ، لقد كان وضع نغمة "الرجل المجهول " في الدفاع وسيلة بارعة لتحميله كل التفاصيل التي ظلت غامضة ، وفي هذه الحالة فان المحامي لا يخسرشيئا وليس اسهل عليه من تأليب القضاء على رجل ما زال فارا بعد ان قام بخديعة رهيبة .
لقد كان المحامي بارعا في استغلال نقطة حساسة في القضية هي صمتي ، وكان صمتي يثقل ضمير المحكمة وقد جاء المحامي ليتيح لها مخرجا لائقا عن طريق القاء التبعة على اكتاف رجل هارب
ولكن القاضي لم يكن قد استطاع - بعد - اسكات الضجيج ، وكان المحامي الشائب ما زال يلوح باوراقه مطالبا باتاحة الفرصة له ليكمل مرافعته وكانت زوجتي وسعيد الحايك يهزان رأسيهما للمحامي مشجعين في تعابير بدت وكأنها تتمسك بما تبقى في اوراقه من امل .
وفجأة ضرب المحامي منضدته بجماع كفه فاحدثت دويا هائلا اعقبه صمت مطبق ، وانطلق صوته الراجف وسط ذلك الصمت يصيح :
- نعم ، ايها السادة . . سترون - لو تكرمتم اعطائي فرصة اكمال دفاعي - ان هناك رجلا مجهولا قام بارتكاب هذه الجريمة البشعة ويريد الصاقها بموكلي.
وهز اوراقه في وجه الحاضرين:
-ان سراح موكلي ينغي ان يطلق فورا. . ولدي هناك الاثبات ، وصاح صوت في الصف الخلفي:
- انه منطقي . . دعوه يكمل فقد ينقذ الرجل
ومرة اخرى طلب القاضي من صاحب التعليق ان يغادر القاعة ومرة اخرى شهدت الرجل العجوز الضئيل يخرج بهدوء وكأنه جاء فقط ليقو ل هذه الكلمة.
ووسط الصمت المستثار الذي خيم بعمق ثقيل على القاعة مضي المحامي الشائب في محاولته البارعة لابعاد حبل المشنقة عن عنقي ...
وكنت اعرف ، في شعور غامض ، أن القنبلة التي رماها المحامي العجوز في قاعة المحكمة، حين تحدى الاتهام بوجود رجل مجهول وراء الجريمة ، هي قنبلة لا تحتمل الفحص . وان الضجة التي احدثتها بين الحضور كان سببها الاساسي انهم لم يستمعوا لتتمة المرافعة .
وكنت ارى- بيني وبين نفسي - انه لوطوى المحامي اوراقه عند تلك النقطة ومضى لكان ترك في القاعة اثرا ابعد واعمق واكثر تشويشا من ذلك الذي سيتركه بعد انتهاء المرافعة
وعلى اي حال فقد كنت اعرف ايضا اني لا استطيح تقدير حقيقة كفاءة ذلك المحامي الذي فاجأني بمدخل لم اكن اتوقعه . . . وحين قمت بحسابي الخاص رأيت ان ذلك المحامي ، لو كان اكثر كفاءة مما هو،لاستطاع ان يحوك قصة بارعة قد تنطلي إن ليس على المحكمة، فعلى الرأي العام :
ماذا اقصد بكلمة كفاءة ؟
اقصد انه لو استطاع ،مثلا ، اقناع الشهود باسقاط جمل لا يعتبرونها مهمة في شهاداتهم لجاءت قصته محبوكة تماما.
ولكني كنت اعرف ان ذلك الشيء لن يحدث لا نه يحتاج الى درجة في الذكاء والتصور هي عادة من اسلحة العقل الشاب المغامر و ليست من مؤهلات العقل العجوز..
لقد عاد االمحامي يقرأ بهداوء، صار الآن اكثر ثقة بنفسه واشد تماسكا، وقد رمقني بنظرة خاطفة يوحي. بانه لم يعد- بعد- بحاجة الى معونتي .
بدا فكرر قراءة صفحته كي يعيد وصل الموضرع بدقة ويجعله اكثر تأثيرا....
وانتهى بلهجة عنيفة الى التأكيد الذي سبب مقاطعته قبل دقائق:

. . ((من اين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة التي لم تكشف الا بعدوقوع الجريمة ؟ انه سؤال مهم ايها السادة . . في غاية الاهمية بالرغم من ان الشهود لا يعرفون قصتها. اني اجرؤ على القول بان جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هواثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول . .
من هو هذا الرجل.؟
نحن ألآن في طريقنا لاكتشاف جواب السؤال الذي طرحناه قبل قليل : لماذا أختار الرجل المجمول ان يدفع القضية الى المحاكم بتلك الوسيلة الخبيثة ؟
ايها السادة ، لقد اختار ذلك ليجد الوقت المناسب كي يطر ح الوثيقة التى يمتلكما للبيع ، والقمية فى ذروتها قد كان من الممكن ان تكون الوثيقة الآن في يد الشاب الارجنتيي لو ان اتصالات الشخص المجهول بليلى قد اتخذت مجرى آخر. . وكان الشاب ، على الاقل كما يفترض ذلك الرجل المجهول ، مستعدا لشراء الوثيقة الوحيدة التي يمكن ان تحول بينه وبين الارث ، ولكن المجهول اتصل بليلى لانه افتوض انه يستطيع ان يبيعها الوثيقة بسعر اغلى .
ان الشاب الارجنتيي فوجىء بالقصة كلها ،وقد اعترف بذلك ،كانت الثروة بالنسبة له مصادفة تهبط من السماء ولذلك قبل بحصة صغيرة ،اما المحامي فان مهمته كما تعلمون ،اكبر من ذلك و اكثر التصاقا بالعدالة.
صحيح ان موكلي طلب للشاب الارجنتيني ثلثي الارث ، دون ان يكون الشاب نفسه قد طلب ذلك،ولكن لماذا ينسى الانهام ان موكلى كان قد منح السيدة الحايك وعدا بعدم المساومة،و قد اكتشف حين جاءته مع زوجها لتساوم انها واقعة تحت ضغط الزوج.و كان موكلي يريد الالتزام بوعده في ان يطلب لموكله ثلثي الارث ليصرف نظرا لزوج نهائيا عن التفكير بالمساومة؟>>
ان هذا القول مجرد افتراض وانا اميل لأكون اكثر واقعية من الاتهام في هذا الصدد فأقول اننا كيفرا قلبنا الامر فاننا سنرى ان موكي لم يكن يلعب، على الحبلين كما قال الاتهام.
اننا نسقط هنا امام اعينكم قصة سمعتموها من الادعاء تقول ان موكلي كان يلعب لعبة غير قانونية ، و نسقط مهعا افتراضا اعتد عليه الادعاء يقول ان موكلي كان يضغط للخروج بحصة كبيرة لنفسه من تلك الثروة . ان كل الذي اراده موكلي هوان يتابع القضية قانويا. وهو لم يطالب بالثلثين لموكله حين جاءته عاثلة الحايك للسماومة الا لان تلك المساومة اقنعته بان فرصته لكسب الدعوى متوفرة ما تزال ، وهذا الطلب لم يكن خروجاً عن وعد الشرف الذي كان قد أعطاه للضحية لانه لم يطالب بالثلثين بديلاً عن القانون ، ولانه ، من ناحية اخرى،مرتط ايضا بوعد شرف آخر، واكثر قيمة ، امام مهنته وموكله.
ان التحقيقات وشهادات الاطراف المختلفة تعطينا الموقف التالي:
كانت الضحية واثقة من ربح الدعوى ولذلك كانت غير راغبة في المساومة ، وكان زوج الضحية السيد الحايك أقل ثقة لانه اكثر شكا وكان ميالا للمساومة اما موكي فقد كان رجل قانون ، لا يتعامل بالطبيعة مع الظنون ، وكان يترك للعدالة ان تقرر كل شيء، مانحآ موكله وخصمه ، في نبل نادر، وعد شرف بان يكون ملتزما بالقانون وبارادة العدالة
بناء على هذا الموقف نستطيح ان نفهم ان السيد الحايك قد استطاع اقناع زوجته اخيرا ببذل محاولة للمساومة خصوصا وانها قررت التبرع بالمبلخ كله لعمل خيري ، وقد جاء لزيارة موكلي بهذا الشأن ولكن الصفقة لم تتم وبدت الضحية كما قال الشهود مصرة على ان تأخذ القضية مجراها الطبيعي ، وكذلك موكلي - اما السيد الحايك فقد اراد ان يبذل محاولة اخرى مباشرة مع الخصم
نحن نعلم ايها السادة ان الضحية اتصلت بموكلي المرة الاولى كي تقنعه بأن لا يشجع زوجها عل اجراء اية مساومة ، وأن موكلي منحها وعد شرف بذلك ، فلماذا لا نعتتد انه اتصل بها في اليوم الذي وقعت فيه الجريمة ليسألها عن رايها الآن. وقد ذهب زوجها ليجري اتصالا مباشرا مع الخصم ؟
انتم ترون ايها السادة الآن ان مثل ذلك الاتصال كان واجبا، فقد توقع ان يتصل به موكله ليسأله رأيه ، ولذلك كان لا بد له من معرفة طبيعة الموقف الجديد للسيدة الحايك التي كان قد منحها وعدا بعدم قبول اي تسوية من هذا النوع.
وليس بوسح اي منا ان يعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة ، اثنان يعرفان ذلك فقط : واحد صامت والآخر ميت اما الذي نعرفه ايها السادة فهو ما يلي :
ان القضية الآن لم تخرج من يد موكلي ، كما قال الادعاء ولكنها خرجت من يد الشخص المجهول ، الذي لا يعرفه اي واحد منا.

ان موكلي حتى تلك اللحظة لم يخسر شيئا، في الحقيقة انه لا يملك ان يخسر او ان يربح - الشخص الآخر هو الذي كان يخسر، الشخص المجهول الذي بدأ تلك القضية ثم احس بأنها خرجت من سيطرته .
شخص آخر ، بالاضافة لهذا المجهول ، كان يخسر ايضا . ذلك هو السيدة ليلى الحايك ، التي كانت ترفض اية مساومة مع الوريث المزعوم ،سعيد الحايك لم يكن خاسراً بالطبع ، موكلي لم يكن خاسراً أيضا،الشاب الارجنتيي لم يكن خاسراً : فقط السيدة الحايك التي كانت تشعر بأنها ستدفح مبلغاً لشاب لا تعرفه اساء الى ذكرى والدها، ثم ذلك المجهول الذي كان يشعر بأن الصفقة قد خرجت من يديه ، كوسيط
فلماذا لا يبذل ذلك المجهول محاولة أخيرة ؟
لماذا لا يتصل بنفسه هذه المرة بالسيدة الحايك فيقول لها انه يستطيع ان ينهي تلك القضية بوثيقة واحدة اذا منعت زوجها من اعطاءالعشر للوريث المزعوم واعطته له بدلا ذلك ؟
لنقل ، افتراضا، انه اتصل بليلى وحدثها بشأن الوثيقة ولكنه طالبها بأن لا تبوبح بها، وقد اشارت ليلى الى الموضوع لزوجها ولكن بثقة قليلة : فهي لا تعرف حقيقة تلك الوثيقة ولا تملكها بعد ، وهذا ما يفسر انها رفضت اعطاءها لزوجها او لموكلي او الدخول في التفاصيل بشأنها معهما . وهي من ناحية اخرى لا تعرف كيف سترسو الصفقة مع الشاب الارجنتيي لتساوم المجهول على اساسها ، وكان زوجها- كما قال بنفسه - مصرا على المساومة فتركته يفعل واثقة بانها ستكون ، في نهاية المطاف في جانب الانتصار.
لسنا نعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة الموجزة التي حدثت بين الضحية وموكلي ظهر اليوم التي وقعت فيه الجريمة ، ولكننا نستطيع ان نستنتج بناء على وقائع حدثت فيما بعا، انها طلبت منه مقابلتها في بيتها في السابعة من ذلك المساء .
لماذا في السابعة وهي التي تعرف ان موكلي يغلق مكتبه في السادسة ؟
انه سؤال مهم ايها السادة ،ففي السادسة كان موعدها مع الرجل المجهول ، وكانت تريد ان تستشير موكلي بعد مقابلة الرجل المجهول لتكون على بينة ، ولكنها لم تقل ذلك لموكلي ،كما يبدو، لانها لم تكن مطمئنة بعد الى حقيقة تلك الوثيقة ولا الى صدق الرجل المجهول ومرتبطة بوعدها له بعدم الحديث
لقد اغلق موكلي مكتبه ، وضيع وقتا في التجوال ريثما يحين موعده مع الضحية ، فليس من المنطق في هذه الحالة ان يذهب الى بيته الذي يقع في الطرف الآخر من البلدة _ ويبدو انه تذكر بان الاستعانة ببعض الاوراق قد تصبح ضرورية فعاد الى مكتبه حين فاجأه البواب يضع "شيئا متطاولا" في جيبه ، ولم يكن هذا الشيء الا الاوراق التي لا بد لمحام ما ان يصطحبها معه الى لقاء يتعلق بالعمل.
ليس من المعقول ان يكون موكلي ء في تلك الفترة التي وقعت بين السادسة والسادسة والنصف من يوم الجريمة ، قد ذهب الى بيت الضحية - ليس لدينا اي اثبات على ذلك ، والبواب يقول انه لم يره ، واذا كنا نعتقد ان موكلي _ غافله ، فانه من الصعب ان نصدق بانه نجح في ذلك اربع مرات متوالية في ظرف نصف ساعة ، خصوصا وان البواب لم يغادر مكانه كما قال الا لفترة قصيرة .
لقد وصل موكلي الى بيت الضحة في موعده، ولكنه لم يجد أحدا- وقد اراد كما يبدو ان يعرف فيما اذا كانت الضحية في البيت ، كي يواصل محاولته ، ام خارجه كي ينتظر وليس ثمة الا طريقة واحدة لمعرفة ذلك المفتاح ، وفيما كان يحاول تحسيس مكان المفتاح ،اسقط علبة سجائره . لم يجد موكلي المفتاح في مكانه فعرف ان السيدة ليلى في الداخل ، وانها لسبب من الاسباب لا تريد ملاقاته ، او انها نائمة - ولم يكن الامر يعنيه كثيرا فغادر المنزل ، ولكنه اكتشف انه ضيع علبة لفافاته فعاد، وكما يحدث مع اي انسان آخر يقابل انسانا في المصعد وهو في طريقه لزيارة امرأة ذات زوج مسافر يشعر بانه قد يجرجها امام جيرانها فعاد ادراجه .
لو كان موكلي قد ضيح علبة لفافته في مسرح جريمة قتل لما ترد في بذل محاولة لايجادها، فهي البرهان الاوحد في هذه الحالة وبالوسع اخفاؤه ، ولكن حين كان الامر كله يتعلق بعلبة لفافات شبه فارغة فان العودة ال باب منزل امرأة وحيدة امام اعين جيرانها، عمل لا يستحق الاصرار.
الان ، ما الذي حصل بين السادسة والسادسة والنصف ؟
لقد جاء ذلك الرجل المجهول ليسارم ليلى ، وابرز لها الوثيقة الحاسمة ولكن يبدو ان الاتفاق لم يحدث ، وليس يعرف احد _ الا الضحية والرجل المجهول _ لماذا قامت الى الهاتف : ربما لتستدعي الشرطة ، ربما لتستعجل موكلي ، ولكن الجريمة حدثت تلك اللحظة بالذات ، فيما كانت الضحية بين الهاتف والمقعد _ كان المجرم المجهول يفترض كما يبدو انه يستطيع الان تأمين الارث للشاب الارجنتيي وحده ، وبالتالي فان حصته ستضحي اكبر وقد كان لا بد من تلك الجريمة لان امره كان على وشك الافتضاح ايضا.

انني لا ادعي اني اعرف دوافعه كاملة فذلك من شأن تحقيق آخر تقوم به المحكمة _ ولكني لا ارى بالنسبة لرجل قدير مثله مانعا من ارتكاب هذه الجريمة نهاية منطقية وعقلية لما بدأه.
لقد أثبت التحقيق ان القاتل كان يلبس قفازين ، فلماذا لم يلبسهما موكلي ، اذا كان هو القاتل ، حين فتش عن المفتاح ؟
ان الرجل الذي يلبس قفازين ليرتكب جريمة لا يترك ايها السادة بصمات اصابعه على حافة باب مغبر، ولا يعرض نفسه امام ثلاثة شهود على باب المصعد ، ولا يسقط علبة سجائره حين يغادر المسرح ثم لا يعود ليأخذها
وأنا اعرف ان الادعاء سيتحدث عن رزمة القاها موكلي في البحر، لكني اعتقد انه لا يعرف عنها شيئا هو الآخر بقدر ما اعرف انا – ان قذف رزمة ما، مجهولة ، في البحر ليست دليلا على اي شيء، والعدالة لا تستطع ان تشنق رجلا لانه القى رزمة في مياه البحر .
ليس ثمة سبب ليرتكب موكلي جريمة من هذا النوع ، ان جميع الشهود اتفقوا على ان ذلك الانهام شيء بعيد الاحتمال .و قد رايا ها هنا انعدام الحافز ايضا .و بنفس القوه استطيع ان اقول اني لا اعرف احدا يهمه ارتكاب هذه الجريمة الا ذلك الرجل المجهول...
لقد وجه ذلك المجهول الذي نجح حتى الآن في تجنيب العدالة طعنة محكمة واحدة الى خاصرة الضحية فيما كانت توليه ظهرها، وامعانا في اخفاء جريمته والتمويه على حقيقتها قام باستلاب بعض المجوهرات ،ولكنه في غمار اضطرابه لم يعثر على الوثيقة الحاسمة ، التي وجد ها التحقيق مدفونة في خزانة الكتب القريبة .
كيف وصلت الوثيقة الى هناك ؟ هل يعقل ان تضع امرأة ما وثيقة هامة كهذه كانت في حوزتها منذ زمن بين كتب زوجها؟ لا يعقل، وقد وجدت الوثيقة هناك لسبب بسيط هو ان الضحية غافلت الشخص المجهول الذي كان هناك وخبأتها في اقرب مكان ، اوكانت قد اشترتها منه ودفعت ثمنها مجوهراتها بناء على اصراره ثم غافلها وقام يطعنها لسبب لا نستطيع ان نكتشفه الان .
ان كثيرا من الاحتمالات يمكن ان ترد هنا، وذلك لسبب بسيط وهو ان المجرم الحقيقي ليس هنا : هل اعطاها المجرم الوثيقة قبل تلك الجلسة في اليوم المشؤوم ثم اختلف معها وانتهى الخلاف بالجريمة ؟ هل قتلها في محاولة لاسترداد الوثيقة ثم فوجئ بجرس الباب وبيد تبحث عن المفتاح فاركن الى الفرار او الاختباء بشكل ما؟ هل كانت الوثيقة حقا في حوزة الضحية قبيل الجريمة ؟ هل هي الوثيقة التي تستطيع ان تحسم القضية ام ثمة وثيقة اخرى جعلت امر فقدان الوثيقة الاولى ثانوياً؟ هل كان المجرم قريبا من العائلة الى حد الاطلاع على تفاصيل ثانوية ام انه كان على معرفة بماضي الاب ؟
ان هذه الاسئلة ، وكثيرا جدا غيرها، ينبغي ان نجد اجوبتها، اين ؟
هذا هو السؤال المهم .
ايها السادة ، يوجد رجل اخر، او اكثر وراء هذه الجريمة المروعة ، رجل استطاع تضليلنا جميعا وليس قتل امرأة فاضلة بريئة فقط ولكن محاولة قتل رجل بارع بريء ايضا، وكي لا نسمح لذلك بالحدوث فان علينا بد ء التحقيق من جديد واطلاق سراح موكلي فورا

..
لقد قوبلت تلك المرافعة بالصمت والذهول ، واكتشف كثير من الحضور كما يبدو ان المسألة اكثر تعقيدا مما حسبوا، وكان الادعاء، طوال الوقت ، يهز رأسه مستنكرا ،اما القاضي فقد نجح في ان يجعل
وجهه جامدا تماما، مكتفيا بتسجيل ملاحظة بين الفينة والاخرى وفورا بدأ استجواب الشهود مرة اخرى ، الا ان الدفاع والاتهام معا لم يستطيعا ان يضيفا شيئا جديدا نتيجة لاسئلتهما المعقدة ، لقد عاد كل شاهد فكرر بالضبط ما كان قاله في الاستجواب السابق ، ويبدو ان شعورا ما قد سيطر على الجميع بان القضية كانت تمر في تلك اللحظة بمرحلة دقيقة من التوازن ، وان كلمة اضافية واحدة قد ترجح كفة ما ، فيذهب رأسي ثمنا ، او كفة اخرى فيطلق سراحي فورا . ولم يكن اي من الشهود راغبا في تحمل مسؤولية اي من الاحتمالين .
وبدت القضية كلها - تلك اللحظة - امام لحظة حاسمة...
ورغم ارادتي اخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت اسمع دقاته في السكون المتوتر. . .
واخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت اسمح صوته يدوي وسط السكون المطبق الذي كان مخيماا على الجميع.
وبدا لي تلك اللحظة بالذات ان قصة المحامي العجوزالمختلقة ، قد تكون حقيقة ، بل اني مضيت _ في الدوار الذي اصابي والذي كنت اجهل حتى الان حقيقة دوافعه _ مضيت اتصور القاضي يقوم عن مقعده فيربت على كتفي وعيناه مغرورقتان بالدموع . . . ويقول لي امض الى بيتك ايها المسكين . . . فأنت بريء .

حتى تلك اللحظة لم اكن اعلم ابدا حقيقة الدوافع وراء هذه الافكار الساذجة ،كانت شيئا آخر يختلف تماما عما حسبته في البدء .
كنت احسب -وإنا خاضع للجوالذي خيم بعد مرافعة المحامي _ ان المسألة كلها هي مباراة في البراعة وان براءتي تتوقف على ان يكون محامي ابرع من الاتهام بغض النظر عن الحقيقة . . وان الذي يستطيح - بين الاثنين -اختلاق القصة الاكثر اقناعا لا القصة الاكثر" واقعية " هو الذي يفوز برأسي : فاما ان يرسله الى اليت او يرسله الى المشنقة
القصة الاكثر واقعية ؟
ما هو الواقع ايها السادة ؟ انه - في اعتباركم - المعقول والمنطقي ..
ولكن كم من الاحداث الواقعية بين معقول ومنطقي؟ ما هى االعلاقة بين الواقع والمعقول ؟ هل الحرب ، مثلا واقعية ام معقولة... اترون ، اننا نلعب على بعضنا، اننا نزور العالم كي نفهمه ... يا للتعاسة...
قلت انني حسبت ان براءتي اضحت على مرمى حجر، ولكني كنت واهما.
كانت الحقيقة وراء مشاعري المغفلوطة هي ان القصة الحقيقية التي حدثت باتت غيرمهمة ، واننا كنا ندخل في عالم شفاف ، مزيف ، كان لا يعني اي واحد منا
وحين ذهبت الى زنزانتي صفا ذهني من جديد.
واستعرضت المسالة بدقة .
وادركت ان مرافعة الدفاع تحتوي على سلسلة من الاخطاء المهلكة.
وفي الوقت الذي كنت متأكدا فيه ان الاتهام سيكشف تلك الاخطاء واحدة بعد الاخرى فقد كنت واثقا انه ، بالرغم من ذلك ، فسيظل منطق الادعاء مهزوزا امام بضعة نقاط اخرى لا سبيل الى دحضها او كشفها، اجاد الدفاع استعمالها ال ابعد مدى يستطيعه.
وكنت قد نجحت في ان اضع نفسي خارج الموضوع واراقبه عن بعد فحسب ، كما كان يفعل الجميع تقريبا،
تسألونني الم تكن حياتي تهمي على الاطلاق ؟ بلى من منا لا يهتم بذلك ؟ ولكن الامر كما حاولت ان اقول في هذه الاوراق كلها اكثر تعقيدا من ان يؤخذ بمثل هذه البساطة .
انني مطوق بصورة تستعصي على الافلات ، قد تكوذ هذه الحقيقة هي الكبرى في تحديد مشاعري الان ، ولكن ثمة حقائق اخرى تتراكب وتكون ما هو اكبر من تلك الواقعة القانونية
انتم حين تعزلون السجين عن العلاقات البشرية ، عن الحب ، عن العمل انما تساعدونه على اجراد تقويم خاص وجديد للحياة ذاتها، ما هي الحياة ايها السادة ، اذا كانت تجري في معزل عن ذلك كله ؟ قد تقولون انها تنعي، حينذاك ،الامل في استرجاع تلك القيم جميعا ذات يوم ، ولكن هذه المواساة ليست حقيقية الا بمقدار بسيط ، فالزمن وحده هوالذي سيكشف للانسان المعزول بين جدران اربعة ان تلك القيم انما هي في االواقع لعبة اخترعناها نحن لنعبر شوطنا دونما ملل كبير فما الذي ستعنيه الحياة حينذاك؟
لن ادعي هنا اني لم اكن لاخشى الموت ، كلا - هذا شيء لم افكر فيه كثيرا في الحقيقة - . انه من اصعب الامور ملى الانسان ان يتصور موته الخاص. بلا سبب . لقد كنت افترض الموت كاحتمال نظري امامه احتمال اخر و مساو، ان الصمت قد ساعدني كثيرا على اعتياد ذلك الافتراض الى درجة لم اعد اخشاه كثيرا
كنت مريضا جدا يوم عقدت المحكمة جلسة خاصة للاستماع لرد الاتهام ، وسمح القاضي بغيابي شرط ان اطلع على نسخة من المطالعة وقد جيء لي بها عند الظهيرة ، كانت تكرارا للقصة كما يراها الاتهام مع شيء من التفاصيل .
لقد رفض الاتهام فكرة وجود رجل مجهول آخر في الجريمة ، وسخر من هذه النقطة التي اعتمد عليها الدفاع ، وتساءل عن ذلك المجهول الذي لم يبرز الا عند الجريمة ، ولم يقبل ما قاله الادعاء حول الرسالتين اللتين وصلتا في فترة واحدة تقريبا للشاب الارجنتيني ولسعيد الحايك وتحداه في ان يثبت ، باية صورة من الصور، وجود شخص مجهول قام بتوجيههما للرجلين ، وقال انه حتى لو افترضنا وجود مثل ذلك الشخص فما هي مصلحته من دفع الطرفين الى المحكمة في وقت كان يستطيع فيه ان يتصل مباشرة بعائلة الحايك للمساومة دون الدخول في حيثيات القضاء.
ووصف الاتهام قصة قيام المجهول بارتكاب الجريمة بانها "خيالية وغيرمعقولة وتفتقر الى الادلة " وقال بأن كون بواب العمارة لم يشاهدني وأنا ادخل الى البناية في المرة الاولى ليس برهانا على اني لم ادخلها فشهادة البواب في

هذا المضمار ليست قاطعة اولا لانه اعترف بغيابه لفترة ما تلك الليلة ، وثانيا لان عمارة من اربع عشرة طبقة يقوم بالدخول اليها والخروج منها عدد من السكان والزوار ليس بوسع ر.جل واحد تذكر وجوههم جميعا
ورفض الاتهام في في لهجة قاسية ، الطريقة التي برر فيها الادعاء رمي رزمة متطاولة في البحر، ولم يقبل تفسير الادعاء لموضوع الوثيقة الحاسمة وكيفية وصولها الى يد ليلى ووصف كلا الامرين بانهما تصور يفتقر الى الادلة وكان المحامي الاشيب جالسا على مقعد خشبي في الزنزانة ، ينظر الي قلقا وانا اقرأ الاتهام بامعان " وحين انهيت القراءة ناولته الاوراق فاخذها وطواها بدقة " فيما كان منصرفا ال تفكير عميق " ووضعها في محفظته ثم انشأ يحدق الي محتارا
و اخيرا قال ، بصوت تعس ، انني اضعه بصمتي مضحك .
ونهض وربط يديه وراء ظهره وخطا نحوي وهو يقول : انا محام يا استاذ صالح، ولست كاتب قصص ...
لماذا ل تساعدني... ؟
وانتظرمرهفا حواسه جميعا، اية اشارة جديدة الا انه عاد فهز رأسه ومضى يسير بخطوات صغيرة داخل الزنزانة ثم وقف والتفت نحوي:
- انه من النادر ان يستطيح محام مثلي اخذ قضية لمحام مثلك على عاتقه ، انا واثق انك تستطيع ان تكون عنصرا مساعدا جدا، انت اكثر خبرة منا جيعا، ثم ان القضية قضيتك "
ولم يستطح ان يضبط صوته فصاح :
- و هي حياتك ايضا .
وحين يئس تماما عاد الى المقعد فجلس ، وفكر قليلا ، ثم قال:
- انا واثق من شيئين على الاقل، اولهما انك لم ترتكب الجريمة وثانيهما ان رجلا مجهولا لعب الدور الاساسي ، ولكن هذا كله لا يعني شيئا امام الادلة الموجودة - انا في حاجة ال عقلك ومقدرتك
وكان يتوقح كما يبدو ان تلاقي هذه المحاولة الجديدة ما لقيته المحاولات السابقة ، فاتكأ بهدوء وحدق الى السقف ومضى يرسم لوحة :
- ثمة ة رجل مجهول كان يتابع الامركله عن كثب ، كان يمتلك وثيقة واحدة تثبت ان الصبي الارجنتيي ليس وريثا، ولكنه لم يكن ليستطيع استعمال هذه الوثيقة الا اذا انبرى الشاب للمطالبة بحقه ، وكان يعرف
انه حين تتعقد القضية في المحاكم يستطيع ان يبيع الوثيقة الى احد الطرفين ، وهكذا دفعها ببراعة نحوالقضاء، واختفى طيلة تلك الفترة ليظهر في الوقت المناسب " كما ترى وعكس ما قال الادعاء ان ذلك المجهول لم يكن ليستطع مساومة آل الحايك على تلك الوثيقة لانهم لن يهتموا بها، كان المجال الوحيد امامه هو ان يخلق الجو الذي يضمن لتلك الو ثيقة قيمة ما. "
وفكر مليا فيما قاله ، ونفض يديه امامه محتارا واخذ يهز راسه و تمتم متحسرا
- ولكن كيف يمكن اثبات وجود ذلك الشخص المجهول ؟
ونظر الي من طرف عينيه ، متوقعا بصورة تكاد لا تلحظ ان اعطي جوابا ما، وحين لمس فشله الجديد مضى كأن شيئا لم يحدث :
- " لو افترضنا اننا نكتب رواية مثيرة لوضعنا احتمالا آخر. لقلنا ان الرجل المجهول هو الاب الحقيقي للشاب الارجنتيي ، وان ما فعله كان عملا يستهدف منفعة الابن الذي امضى عمره كله يظلمه ، والذي بات موت والد ليلى يهدد؟ بظلم افجع !"
وضحك ، بمرارة ، ثم نهض متثاقلا وحمل حقيبته واخذ ينظر الي ، قاعدا على السرير الخشبي الواطئ كقطعة منه :
- انك الوحيد الذي يستطيح ان يثبت شيئا هاما، اين كنت بين السادسة والسادسة والنصف من ذلك المساء المشؤوم ؟ ولماذا ذهبت الى ليلى؟
وخطرت في جبينه فكرة سريعة فعاد وجلس :
- في الواقع هناك اسئلة اخرى بحاجة ال جواب : لماذا عدت الى مكتبك ؟ ما الذي حملته معك ؟ ما الذي رميته في البحر؟ لماذا رفضت التسوية بين آل الحايك والشاب الارجنتيي؟ لماذا؟
وبهدوء، وبصوت كالثلج ، جاء السؤال الذي توقعته منه دائما :
- أتكون أنت الذي قتلتها ايها التعس ؟
ووضح حقيبته على الارض وانحنى باتجاهي :

-.قد تكون ذهبت لليلى لسبب شيطاني لا اعرنه ، هذا لا يهمني الآن. . ولكن من الذي قتل ليلى ؟
وبالرغم من انني لم اكن انوي الجواب الا انني مضيت ، حقا ، افكر بالسؤال ،ولم استطع ان اجد اية بادرة لاي جواب فهززت رأسي بالرغم من سيطرتي على نفسي فصاح :
- ها! ها! نحن اخذون في التحسن الان . اني على يقين انك على لأقل تستمع الى مااقول "ما كان ضرك لو بدلآ من هذه الحركة ، قلت شيئا؟
وشجعته البادرة فنهض و قرفص امامي كما يفعل والد رحب الصدر :
- سعيد الحايك؟
سأل بصوت خفيض ، يكاد لا يسمع ، مشحونا بالتردد وبتانيب الضمير، ثم وضع بنفسه حيثيات الجواب :
- يبدو ذلك مستحيلا، فقد حاول الانتحار حين علم ، وكان في الارجنتين آنذاك يحضرلها مفاجأة سعيدة ، ثم لماذا؟ كان يحبها بجنون ،قد منح الارث كله لاعمال خيرية باسمها دون ان يكون مضطرا لذلك لقد كان الوحيد الذي يعرف انها نوت ذلك ، وكان بوسعه لاحتفاظ بالارث كله ، لو شاء. .
وتردد قليلآ وسأل :
- هل كانت تخونه ؟
وحدق الي متحفزا ، ولا شك ان فكرة جهنمية عبرت جينه عبورا صاعقا ، فقال ،مستثارآ :
- معك انت؟
ومضى يضع جوابآ :
- ليس ثمة أي دليل ، لا مادي ولا حتى ظني . . ومعك أنت ؟ هذه مسألة ليس من الهين اثباتها،وحتى لوكان هذا صحيحا فمن الأكيد ان سعيد الحايك لم يكن يدري ، لقد حققوا معه طويلا في مثل هذا الاحتمال ولو كان يدري اذن لما حاول الانتحار. . ثم لماذا يقتلها هي؟ معك انت ؟ ثم لماذا يدفع عنك تكاليف الدفاع ؟
ونفض ذراعيه
- .. وهذا لا يثبت شيئا على اي حال - الا انك زرتها ليلتذاك والا انك كنت ، اغلب الظن ، في الداخل - اي انك ارتكبت الجريمة .
و قرر
دعنا من هذه القصة ، هل ثمة رجل آخر؟
وسار في الزنزانة ، يدق خطواته في حيرة وتردد، ثم توصل الى موضوع جديد - لنقل ما يلي :
- ذهبت انت لتزورها ، و قبل ذلك بنصف ساعة حاول لص ما ان ...
وسكت فجأة ، كما لو انه اكتشف بنسه ان ما سيقوله لا يحمل اية قيمة ، ورغم ذلك فقد احتملت رغبته في الكلام فترة صغيرة من التردد، ثم قال :
- طيب ، لنقل ان لصا ما كان في تلك الاثناء يحاول سرقة البيت، وفوجىء> بليلى فطعنها، وكان ينوي حقا السرقة وليس اي امر آخر، وقد سرق المجوهرات . لنقل ان سرقة المجوهرات ليست تمويها، الا يبدو
ذلك منطقيا لو...
وسكت مرة اخرى، وما لبث ان قالها :
- ... لو انهيت اضرابك ، وقلت شيئا ، وساعدت في وضع مطالعة قانونية ؟
كانت الحيرة هي التي اخذت تدفع به من تصور الى آخر، في الحقيقة ان كل ما كان يريده النذ هو ان احكي
لقد بات يشعر ان صمتي قد حمله مسؤولية لم يكن يتوقعهاتماما، وانني لو تكلمت لتخلص من جزء كبير من هذه المسؤولية.
لقد استنفد وسائله فعاد يلتقط حقيبته ، ودون ان يقول شيئا اشار للحارس ان يفتح الباب ، وفقط حين انتهى الحارس من اغلاق القفل مرة اخرى التفت الي ، وبدا لي في لحظة واحدة سجينا، وانني انما أزوره ، وقال محذرا
- انت لست في موقف حسن . . . واخشى ان يكون رأسك اقرب الى المشنقة مما تتصور، وانا اقول لك ذلك كي تقرر مصيرك بنفسك .
واستمعت ، حالما، الى صدى خطواته الثقيلة المترددة تعبر الرواق الحجري الكامد، كأنها كانت تعتزم بالرغم منه العودة الي ، وبدا لي ان كل شي،تبقى من هذا العالم آخذ في الابتعادعني للمرة الاخيرة ، وقد قمت بهدوء فامسكت بقضبان الحديد وفكرت بكل ما لدي من قوة للحظة واحدة فقط ، ولكني لم اجد شيئا جديدا يستحق ان يجبرني على

تغيير قراري ، لقد جاؤوا بالعشاء فاكلت دون اهتمام من ذلك النوع الوحيد من الطعام الذي اعتادوا ان يقدموه لي ، كانت الآلام ما تزال تختبىء في معدتي ، وكنت اعرف اني سأمضي ليلة متعبة ، ولذلك غفوت مبكرا.
وفوجئت يوم الحكم بان المحكمة اعطت فرصة لسعيد الحايك كي يتكلم بناء على طلب ملح ، وحين وقف على منصة الشهادة بدا تعسا و حائرا
قال سعيد الحايك انه - رغم كل ما حدث - لا يعتقد اني القاتل ،ولا يعتقد اني انا الذي كتبت الرسالتين المغفلتين اللتين ارسلتا له وللشاب الارجنتيي، وقال انه حين قابلي اول مرة لم اكن اعرف اطلاقا اي شيء عن القضية ثم استأذن المحكمة في ان يتوجه بالكلام الي مباشرة ، وحين منح الاذن استدار نحوي، وخيل الي اني رأيت في عينيه دموعا، ورجاني في صوت مؤثر ان اتكلم ، لا لاقو ل اي شيء ولكن لاوجه اليه اي سؤال اشاء، واقسم ان يجيب بكل ما يعرف...
وانتظر دقائق وهو يحدق الي ، وكانت القاعة كلها تحدق الي ايضا ،وحين خيم صمت ، ثقيل عاد سعيد الحايك فقال انه قد يكون ذا نفع في جانب لا يعرفه ، وقال لي اني قد اعتقد انه يعرف شيئا، او إنه قد يساعد في ايضاح بعض النقاط ورجاني مرة اخرى ان اسأله اي سؤال او اطلب منه الحديث في اي موضوع ولكني اعتصمت بالصمت.
ومرة اخرى استدار واخذ يخاطب القاضي ، اقسم في البدء انه قال كل ما يهم المحكمة ان تعرف ، ورمقني بطرف عينيه ، وهويقسم ويده امامه بانه لا يعرف شيئا عن الذي ارسل الرسالين المغفلتين ، ونظر الي
مباشرة وقال : قد تكون شاكا في امر الرسالتين ، ولكني اقسم لك بذكرى ليلى- وانت الذي يعرف كم اقدس هذه الذكرى - باني لا اعرف شيئا الا ما قلت للمحكة.
ومرة اخرى خيم الصمت ، وكنت انظر الى البلاطة التي تقع بين حذائي ، مسيطرا تماما على كل حواسي وجسدي ، وقد سمعته ، وانا مجمد، يعلن للمحكمة ولي انه سيمنح نصف الارث لزوجتي ، تعبيرا منه عن عطفه علي ، وانه سيكتفي بمنح النصف الآخرللمشروع الخنيري الذي اوصت به زوجته .
ونزل سعيد الحايك عن المنصة ببط ء ، وحين صار امام القفص وقف هنيهة ، وسأل وهو يرتعش : اتريد ان اقول شيئا؟ وحين لم يتلق جوابا ،مضى بهدوء ، الى مقعده .
واخذت الضوضاء ، في القاعة تتصاعد من الهمس الى الكلام الى زحزحة المقاعد ، وعبر هذه الدوامة التي كان صداها يرتد من جدار الى جدار ، ضيعت كل قدرتي على فهم سعيد الحايك ، لقد بدا ذلك الرجل المصطبغ بالنبل الضروري جالسا بين الناس لغزا يستعصي على الفهم.ولكني كنت واثقا انه لم يرتكب الجريمة كما كان واثقا باني لم افعل ، لقد كنا نتبادل ، صامتين ، عملة عجيبة اسمها التواطؤ ، دون ان نتفق على ذلك ، وكان كل ما حدث بيننا امرا يخصنا وحدنا . لقد فكر سعيد الحايك كما يبدو ان يروي حقيقة قصة الارث ، ولكني ادرك الآن انه هو ايضا لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة . ولم يعد يعرف كيف فلتت الخطة من بين اصابعنا معا، وحتى لو قال الحقيقة فان ذلك لم يكن ليحل الاشكال ، ان قصته لا تبرهن على اني لم افكر بالمساومة ، وليس ثمة ما يثبت صحتها _ ستبدو محاولة صبيانية يذلها صديق لانقاذ صديقه من الموت ، ومهما يكن فقد كنت عاجزا عن تصور الطريقة التي اقنع سعيد الحايك نفسه بواسطتها بأن عليه ان لا يقول تلك الحقيقة الجزئية العابرة ، وقد منحي فرصة عادلة لاوافق على اجتهاده ففعلت .
ان سعيد الحايك كان يراوده الشك منذ البدء في اني قد استغل هذه القضية لمصلحتي - وقد اشار الى ذلك عابرا مرة او مرتين ، فاذا كان هو ذاته يشك في الامرء فلماذا لا يتيح للقضاء ايضاً فرصة مماثلة ؟ الم يكن ذهابه الى الارجنتين من وراء ظهري تعبيراً عن ذلك الشك ؟ كيف سيبرره اذا روى القصة الحقيقية ؟ ماذا عنده ليقول حول علاقتي بليلى وهو الذي يعرف انه لا توجد اية علاقة بخصوص القضية المتفق عليها .كيف سيبرر ذهابي لبيتها؟ ما هو الاتهام البديل ؟ بمن يشك اذن ؟
لقد طرح بلا شك هذه الاسئلة على نفسه واكتشف انها لن تؤدي الى جواب ، وقد اخذت القضية منذ البدء اتجاها فرضته مجموعة ظروف لم يكن يتخيل اي منا انها ستصل الى ذلك الحد، واذا ما بذل اية محاولة للعودة الى نقطة البدء فقد كان يدرك انه قد يقع في مكاني ، ان زحزحة صغيرة للاسس التي افترضها الاتهام ووافقه عليها الدفاع من حيث لا يدري ستغير امكنتنا، وستضعه هو بين فكي تلك المصادفة الرهيبة- انني استطيع ، لوكنت مكان الادعاء وكان سعيد الحايك في مكاني، ان اكتب مطالعة محكمة ، تضع رأس سعيد الحايك في حبل المشنقة ، دون ان يكون هو بالذات مرتكب الجريمة
هل تريدون ان احاول ذلك ؟

انني استطيع ان افترض ان سعيد الحايك وجد دلائل تشير الى علاقة بين زوجته والمحامي صالح ، وقد ادرك انه هو ، من حيث لا يدري كان سبب هذه العلاقة نتيجة للعبة غريبة حول وريث مزعوم كان يدرك منذ البدء انه يستطيع التخلص منه في اية لحظة تحت وطأة وثيقة كانت معه منذ البدء، وهو الذي وضعها بين كتبه بعد الجريمة وليس قبلها ،وقد قرر ان يقوم بالجريمة لاسباب عاطفية اولا، ولان الارث سينصب عنده ثانيا، وقد نفذها بالواسطة ، ابان رحلة مصطنعة الى الارجنتين- ان قضية التبرع بالارث قد تكون وسيلة لابعاد الشبهة ، وسيظل من الميسور ان يجد المحامي البارع وسيلة ليثبت ان التبرع كان مشروطا وانه لم يكن حقيقيا تماما، وعلى اي حال فان هذه النقطة كانت للتمويه ، تماما كما كانت سرقة المجوهوات .
وفي هذه القصة يمكن ان توضع قصة المحامي صالح في مكانها السليم ، زيارته لليلى ، وزجاجة العطر والدخان والبصمات والهاتف وكل شيء
ولكن هل هذا الصحيح ؟ ان هذا الاتهام كله مبني عل ان سعيد الحايك كان يعرف بوجود علاقة بيني وبين زوجته : وهذا غير صحيح ،ومبني على ان غيرة سعيد الحايك هي الحافز وراء الجريمة وهذا افتراض خادع وغير مثبت في وقائع.
و رغم ذلك فهل كان سعيد الحايك على استعداد ليروي القصة الحقيقية ؟ وهل كنت انا ، من ناحية اخرى على استعداد لاروي الجانب الحقيقي المتعلق بي ؟ وفي سبيل ماذا؟ اننا نحمل . كل على طرف ، قناعة كاملة ببراءة الآخر . وكان لا بد لواحد منا على الاقل ن هوذاك الذي لا سبيل الى التقليل من الادلة ضده ، ان يدفح الثمن .
ولكن من الذي قتل ليلى الحايك ؟
سؤال يؤرقه بقدرما ارقني - ولكني الان تخلصت من همه. الصدفة هي التي فعلت - ايها السادة - الصدفة - ليس يهمني ان كانت تلك الصدفة قد لبست ثوب لص ، او ثوب مجرم جهنمي كان ورائي منذ البدء، ذلك ان الذي يهمني هوان خصمي في هذه القضية الفاجعة انما هو الصدفة ، وهي التي دفعتي، باصر لا يصدق ، لقفص الاتهام.
وعليها الآن – وحدها- ان تتقدم ،اذا شاءت ان تطلق سراحي!
*****
مضى اسبوع آخر . . وعقدت الجلسة الاخيرة في جوحزين مشحون بالقلق . لقد رد القاضي بكلمات موجزة صارمة دفاع محامي ، واكد ان المحكمة لا تجد اي دليل لافتراض رجل آخر في الجريمة ، واعلن عن عدم قناعة المحكمة بتبريرات الدفاع وتفسيراته الافتراضية لجملة الادلة الثابتة.
قال القاضي اني وقت وقوع الجريمة ، كنت في بيت ليلى وان قناعة المحكمة بهذه الحقيقة مستندة اولا الى بصماتي،وثانيا الى كوني لم استطع و لم يستطع اي شاهد اثبات وجودي في مكان آخر، وثالثا الى شهادة هناء حول هاتف الظهيرة ، ورابعا الى وجود علبة سجائري في مكان الجريمة ، وخامسا الى شهادة الاشخاص الثلاثة من سكان العمارة الذين رأوني اتردد على باب المصعد ، وسادسا الى شهادة البواب الذي رآني اضع شيئا متطاولآ يشبه السكين في معطفي، وسابعا الى شهادة بائع السجائر الذي رآني اتخلص من هذا الشيء على شاطىء البحر .
وقال القاضي ان لدى المحكمة قناعات بأن حافزي منذ البدء هو الخروج بحصة كبيرة من الارث ، وقد اثبتت الادلة المسلسلة تخطيطي للحصول على تلك الحصة ، واشاراعترافي من طرف خفي الى النية التي كادت ان تضيع علي حين عرفت ان سعيد الحايك سيجري اتصالا مباشرا مع الوريث المزعوم .
وقال القاضي ان المحكمة تمتلك ادلة لا تدحض تثبت حاجتي الشديدة الى المال ، وانه كان علي ان اسدد ديونا بصورة نهائية خلال شهور قليلة.
ورفضت المحكمة الزعم القائل بان محامياً قديرا مثلي تفوته الحكمة وحسن التقدير فيأخذ على عاتقه قضية من هذا النوع لمجرد ان رسالة مغفلة وصلت الى خصمه ، واطلع عليها بالصدفة ونصحية ساذجة اعطاها له الزوج الشكاك وانتهى القاضي الى القول بان الجريمة كانت مخططة عن سابق تصور وتصميم ، واستند للوصول ال ذلك الاعتقاد بتسلسل الحوادث المنطقي ، وبعدم تركي اي بصمات في مسرح الجريمة ما عدا ذلك الاثر المصادف الذي تركته دون وعي على حافة الباب في المرحلة الاولى من الجريمة.
وقال ان جريمتي لم تكن ضد انسانة فاضلة لمجرد تحقيق مطامع مالية فقط ، ولكنها كانت ايضا ضد شرف مهنتي وضد وعود اعطيتها للضحية ولزوجها.
ووصل الى القول ان ذلك كله يظهر بان المحكمة انما تواجه مجرما محترفآ يتسلح بالذكاء وبالخبرة وان وجوده يشكل خطرا مهما على العدالة والمجتمع.

وأعلن القاضي ان هيئة المحكمة قانعة تماما بان صمتي هونوع من الاعتراف بالجرم سببه وفرة الادلة التي لم اكن احسب لها حساب . وعدد فيما بعد، والجميع وقوف ، سلسلة لا تنتهي من المواد القانونية بلهجة شديد الفخامة . ثم نظر الي مباشرة وهو يقضي بان العقاب سيكون -كماتوقعت وانا استمع الى حيثيات الحكم -الاعدام شنقا حتى الموت .

انني امنحك هذه الاوراق جميعا، يا زوجتي الحبيبة ، لتتصرفي فيها كما تشائين....

انت وحدك التي تستطيعين ان تقرري ماذا ينبغي عليك ان تفعلي فيها: ان تحرقيها، او ان تهديها للعدالة ذات يوم - فاذا كنت انا قد مضيت بصمت فالذي تبقى مني هو انت .

لقد شهدت في عينيك ، قبل الاستماع الى الحكم ، ومضات من نظرات الشك وانا لا الومك ولكني اعطيك القصة الحقيمية ، قصتي وقصة ذلك الشيء الاخر الذي كنت ، طوال ايام السجن القاسية ، في عراك صامت معه ، وراء القانون ، وراء الاتهام والدفاع ، وراء دموعك وعجزي ، وراء منصة القضاء ووراء الضحية التي طعنت حين كنت ، انا احلم بجسدها المعطر بين ذراعي .

ولست انا الذي يستطيع وضع نهاية للقصة...

اني احس ببرودة الموت في اطرافي ، واصحو في الليالي الصامتة لافك عن عنقي كابوساً من الليف والزيت وامضي في ذلك الانتظار التعس خارج منطق الزمن والبشر، في عراك نادر مع شيء آخر لا أعرفه ولا نعترف به .

لست انا الذي يستطيع وضح نهاية للقصة . . . ولست ادري ان كنت استطيع ان احبس لساني حين يأخذونني - ربما الليلة - الى الموت .

انني لا ادعي الشجاعة ولكي اعترف بالعجز، واذا انفك لساني رغما عني وانا اصعد الى حبل النهاية فلست اعرف كيف ستكون الحياة بعدها ولكني اعرف انها ستكون قصيرة جدا، واني سأساق الى ذلك الحبل مرة اخرى

اني شديد التعاسة لانني تركت لك ، امام الناس ، ميراثا قذرا ولم اكتب هذه الاوراق الا لاجعل تعاستك اقل ، واعطيك حريتك الكاملة في ان تقرري الميراث، الذي تريديه مني : اوراق القانون ام هذه الاوراق .

ولكن هل تصدقين انني احببتك وسأظل احبك ؟

ستجدين صعوبة في ان تفعلي ، ولكن الكلمة الاخيرة التي ساظل اقولها لك هي انني احبك ، يا ديما، احبك احبك .

تصرفي كما تشائين في الارث ، ارثي وارث ليلى المسكينة ، قد تحتاجين تلك الاوراق لتشقي طريقك نحو زوج آخر فانت صبية وجميلة والايام انما هي غبار تترسب ذراته الناعمة فوق ذاكراتنا...

سأضع هذه الاورق مع محامي المسكين الذي بذل جهدا مشكورا في قضية يائسة ، وسأكتب له على الغلاف ان لا يعطيها لك الا بعد ان ينتهي كل شيء ، وارجو ان لا تدفعه حيرته الى فتحها قبل الوقت المناسب.

وسادعو لنفسي ، ذلك انه لا يوجد اي انسان آخر يعرف الحقيقة ليدعو معي ، ان اسيطر عل لساني وانا اساق ، غدا او بعد غد لست ادري ، الى حبل الليف والزيت....

.... وان تستطيع رحلة الصمت عبور تلك الخطوات الرهيبة الى الموت...

تمت